مقدّمات أحمد أمين

جمع وتحرير وتقديم

محمد بن سعود الحَمَد

كتاب المجلة العربية

287

مُقَدِّمات
أحمد أمين

جمع وتحرير وتقديم
محمد بن سعود الحَمَد

رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين). شارع المنفلوطي
هاتف: 4777943. 4767345 فاكس: 4766464
ص. ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com

ⓒ ردمك مقدمات أحمد أمين
المجلة العربية، 1441هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الحمد، محمد سعود
مقدمات أحمد أمين. / محمد سعود الحمد. - الرياض، 1441هـ
128ص؛ 14× 21سم. - (كتاب المجلة العربية ؛ 287)
ردمك: 2 - 96 - 8204 - 603 - 978
1 - أمين ، أحمد ، ت 1373هـ 2 - مقدمات الكتب أ.العنوان ب.السلسلة
ديوي 414 8898 / 1441

رقم الإيداع: 8898 / 1441
ردمك: 2 - 96 - 8204 - 603 - 978

المحتويات

استهلال	7
النقد والتقريظ	19
أمانة الكلمة في مقدمات الكتب	23
مُقَدِّمات أحمد أمين لكُتُبِ الآخَرِين	33

استهلال

رَبِّ عونك وتأييدك وتيسيرك.

أحمد أمين (1886 – 1954م) أحد أبرز روَّاد وأساطين النهضة الأدبية والفكرية العربية في النصف الأول من القرن العشرين، فقد كان أديباً موسوعيّاً؛ جمع بين التأريخ لحياة العرب والمسلمين العقلية من جهة، وريادته في مجال الدراسات الأدبية والنقدية من جهة أخرى، فضلاً عن إبداعاته في مجال الصحافة الأدبية بوصفه أحد رموزها المرموقين.

أسس مجلة «الثقافة» (1939 – 1953م) التي ساهمت – مع مجلة «الرسالة» (1933 –1953 م) – في إثراء الحياة الثقافية العربية، وتمهيد الطريق أمام نخبة من أعلام الأدب والنقد والثقافة لتأخذ مكانتها اللائقة في عالمنا العربي.

لقد أضاف أحمد أمين الكثير للحياة الأدبية والنقدية، حتى عُدَّ واحداً من أئمَّة الأدب الكبار الذين لا يُشق لقلمهم غبار على مستوى الحياة العقلية العربية، بِصِفَته أديباً، وكاتباً، ومفكراً، ومؤرخاً.

وَلِدَ أحمد أمين بالقاهرة في الأول من أكتوبر عام 1886م، وتلقّى تعليمه الأوَّلي في الكُتَّاب، قبل أن يلتحق بالمدرسة الابتدائية، بعدها شق طريقه إلى الأزهر. وبعد تخرجه عام 1907م التحق بمدرسة القضاء الشرعي، لينال شهادة القضاء في عام 1911م، ثُمَّ عُيّن مدرساً في المدرسة ذاتها لمدة عامين، ثم عمل قاضياً في محكمة أسيوط الشرعية، ومنها انتُدب عام 1913م لمحكمة الواحات الخارجة، وبقي بها ثلاثة أشهر.

تنقَّل في سلك القضاء حتى عُيِّن في عام 1926م مدرِّساً في كلية الآداب بالجامعة المصرية «جامعة القاهرة الآن»، حيث قام بتدريس علوم اللغة العربية والفلسفة، وتدرج في مجال التدريس حتى انتُخِبَ عميداً لكلية

الآداب، كما اختير عضواً بالمجمع اللغوي بالقاهرة؛ نظراً لتمكُّنِه من أدوات اللغة العربية وآدابها.

أثرى الأستاذ أحمد أمين المكتبة العربية والإسلامية بالعديد من المؤلفات التي حققت ذيوعاً وانتشاراً كبيرين، وكانت محطته الأولى في مجال الفلسفة، حيث نشر كتابه الفلسفي «الأخلاق» في عام1923 م، كما ترجم كتاب «مبادئ الفلسفة» لرابو بورت، ثم عُني بدراسة تاريخ الحياة العقلية في الإسلام، فأصدر أهمَّ كتبه: «فجر الإسلام» عام 1928م في جزء واحد، ثم «ضُحَى الإسلام» في ثلاثة أجزاء، ثم «ظُهر الإسلام» في أربعة أجزاء. فكانت تأريخاً دقيقاً للحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية للإسلام.

وبأسلوبه العذب الرقيق وبكلمات جامعة دقيقة، يصف الأديب الكبير أحمد حسن الزيات – رحمه الله تعالى – هذه الموسوعة الباذخة بقوله:

«حَسْبُ أحمد أمين أنه حلَّل الحياة العقلية للعرب والمسلمين في كتبه: فجر الإسلام وضحاه وظُهره، تحليلاً لم يتهيأ مثله لأحد من قبله: وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذي لم يكل، والعقل الذي لم يضل، والبصيرة التي نفذت إلى الحق من حجب صفيقة واهتدت إليه في مسالك متشعبة»[1].

نشر أحمد أمين مقالات أدبية كثيرة في مجلة «الرسالة» منذ صدورها. ولكن بعد صدور مجلة «الثقافة» في يناير 1939م عن لجنة التأليف والترجمة والنشر، والتي اختِير أحمد أمين رئيساً لتحريرها؛ أخذ ينشر مقالاته فيها حتى وفاته، واستمر دورُ مجلة الثقافة في نشر الثقافة الأدبية حتى احتجابها في يناير 1953م، وقد قام بجمع هذه المقالات في كتابه «فيض الخاطر» الذي طُبع قُبَيْلَ وفاته في أجزاء متتابعة.

(1) فيض الخاطر: أحمد أمين، الطبعة الخامسة 1965م، الجزء الأول، ص 362.

كما كان لأحمد أمين ولمجلة الثقافة أيادٍ بيضاء على ثُلَّة من الكُتَّاب والأدباء، حيث أَفْسَحَت صفحاتها لأقلامٍ كثير من الأدباء الناشئين، وأخذت بأيديهم وشَجعتهم بنشر كتاباتهم، حتى عَرفَهم القُراء في مصر والعالم العربي، وتبوئها فيما بعد مراكز مرموقة في دنيا الأدب؛ أمثال: نجيب محفوظ، وعبدالحميد جودة السحار، وعبدالرحمن بدوي، وعادل كامل، وعلي أحمد باكثير، ومحمد عبدالحليم عبدالله.. وغيرهم كثير.

كذلك قَدَّمَ أحمد أمين سيرة ذاتية لنفسه في كتاب عنوانه «حياتي»، كتبه بأسلوب يغلب عليه التركيز والوضوح؛ فهو في كل ما يكتب يَتَوَخَّى الإفهام والإفادة، أكثر مما يتوخى التأثير الوجداني والإمتاع اللفظي.

وظَلَّ أحمد أمين يرفد الثقافة العربية الإسلامية بعطائه الغزير حتى وافته المنية، فرحل عن دنيانا في 30 مايو عام 1954م، تاركاً مؤلفات كثيرة أثرى بها المكتبة العربية والإسلامية، وقد أصدر ابنُه السفير حسين أحمد أمين كتاباً بعنوان «في بيت أحمد أمين» عن ذكرياته مع والده الراحل.

مؤلفات أحمد أمين:

اسم الكتاب	الناشر
1 - فجر الإسلام	مكتبة النهضة
2- شمس الإسلام (3 أجزاء)	مكتبة النهضة
3- ظهر الإسلام (4 أجزاء)	مكتبة النهضة
4- يوم الإسلام	دار المعارف

اسم الكتاب	الناشر
5- حي بن يقظان	دار المعارف
6- قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية	مكتبة النهضة
7- زعماء الإصلاح في العصر الحديث	مكتبة النهضة
8- الأخلاق	لجنة التأليف
9- حياتي	مكتبة الآداب
10- فيض الخاطر (10 أجزاء)	مكتبة النهضة
وهو مجموعة مقالات أدبية واجتماعية وسياسية	
11- الشرق والغرب	مكتبة النهضة
12- النقد الأدبي (جزءان)	لجنة التأليف
13- هارون الرشيد	دار الهلال
14- الصعلكة والفتوة في الإسلام	دار المعارف
15- المهدي والمهدوية	دار المعارف
16- إلى ولدي	مكتبة الآداب
كتب بالاشتراك:	
17- قصة الفلسفة اليونانية (مع الدكتور زكي نجيب محمود)	لجنة التأليف
18- قصة الفلسفة الحديثة (مع الدكتور زكي نجيب محمود)	لجنة التأليف
19- قصة الأدب في العالم (4 أجزاء) (مع الدكتور زكي نجيب محمود)	مكتبة النهضة
كتب اشترك في نشرها:	
20- الإمتاع والمؤانسة	
21- ديوان الحماسة	

اسم الكتاب	الناشر
22- العقد الفريد	
23- الهوامل والشوامل	
24- خريدة القصر وجريدة العصر	
كتب مترجمة :	
25- مبادئ الفلسفة	لجنة التأليف
كتب مدرسية :	
26 المنتخب من الأدب العربي	
27- المفصل في الأدب العربي	
28- المطالعة التوجيهية	
29- تاريخ الأدب العربي	

* * *

ونظراً لأعمال أحمد أمين المتميزة ذات الطابع الثقافي الفريد؛ كرَّمته جامعة القاهرة، ومَنَحَتْهُ درجة الدكتوراه الفخرية قبيل وفاته بقليل.

وامتاز أحمد أمين بأسلوبه السهل الذي يُخضع اللغة للفكر، ويؤثر الوضوح على تنميق العبارة وتزويقها، مع الدقة وعمق التحليل، وهو أسلوب جعل اللفظة طَيِّعة له تُبرز ما يريده في وضوح وجلاء، من غير تصنُّع أو تكلُّف.

وقد عدَّه الدكتور عبدالعزيز الدسوقي أحد أعلام النقد الملتزم بمناهج البحث العلمي؛ إذ يرى أنه كان يميل إلى التعبير المُقْتَصَد الدقيق، ولذلك خَلَتْ كتبُه من روعة البيان وزخرفة الألفاظ، وإن كانت لم تَخْلُ من جمال يأتيها من دقة التعبير ووضوح التناول؛ ولهذا أفادت موسوعتُه الرائدة «فَجر الإسلام، ضُحى الإسلام، ظُهر الإسلام» ناقدي الأدب ودارسِيه فائدةً كبيرة، وَمَهَّدت الطريقَ

أمـام تصورات أعمق، ودراسـات جديـدة في النقد الأدبي غزيـرة خصبة[1]، وقال: «إنها قد هَيَّأت السـبيلَ القويم للعملية النقدية، فلولا هذه الدراسـات لَظَلَّت الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية والدينية غائمة غامضة، وَلَمَا أدرك الدارسون على وجـه التحديد أثر الثقافات العالمية القديمـة في الأدب العربي»، معتبراً أحمد أمين أحد رواد المنهج التاريخي في دراسة حياة العرب العقلية والاجتماعية في الجاهلية وصدر الإسلام والدولة الأموية.

ويؤكـد عبدالعزيـز الدسـوقي أن أحمـد أمـين قد تَمكَّنَ من دراسـة الحيـاة العقلية للأمـة العربيـة دراسـة جديدة. وعلى الرغـم من اتجاهه التاريخـي، فقد ربط بين الظواهر السياسـية والاجتماعية، وربط بين الأدب والبيئة الطبيعية التي عاش في ظلالهـا العرب، وأدرك بفطنته وبصيرتـه أثرَ الفِرَقِ المختلفة، والتيارات المذهبية، في الشعر والنثر على السواء[2].

أحمد أمين ناقداً أدبيّاً:

لم تقتصر شهرة أحمد أمين على كونه باحثاً مُدَقِّقاً ومؤرخاً للحياة العقلية العربية منـذ فجرِ الإسـلامِ حتـى ضُحاه وظُهره؛ بـل امْتَـدَّتْ أيضـاً إلى دوره المؤثر بوصفه ناقداً أدبيّاً مَرموقاً له مساهمات كبيرة ومؤثرة في تاريخ الأدب العربي المعاصر.

وإذا كانـت هنـاك عدة مناهـج نقدية قد برزت منذ مطلع القرن العشـرين لأعلام النقـد المعاصريـن؛ مثـل: المنهـج الجمـالي، والمنهـج النفسـي، والمنهـج التاريخي، والمنهـج التكاملـي؛ فإن أحمد أمين قد اختـار «المنهج الاجتماعي» في نقده؛ إذ يرى أن النصـ لا يُفْهَـمُ إلا في ضوء البيئة المحيطة بالأديب وما فيها من متغيرات، يتأثر بها وَيُؤَثِّرُ فيها، وقد أقر أحمد أمين بنفسه تمسكه بهذا المنهج في قوله:

«آداب الأمم تختلـف باختـلاف شـخصياتها ومميزاتهـا وميولهـا، كمـا تختلـف

(1) انظـر: تطـور النقـد العربـي الحديـث في مصـر: عبدالعزيز الدسـوقي، الهيئـة المصرية العامـة للكتاب، القاهرة 1977م، ص 400.

(2) المصدر السابق، ص 403.

باختلاف أَمْزِجَة أدبائها، وكما تختلف باختلاف بيئتها؛ سواء كانت بيئة طبيعية من جَوٍّ ووضع جغرافي، أم بيئة اجتماعية من سياسة ودين وأوضاع وتقاليد ونحو ذلك»[1].

ويقول في موضع آخر:

«إن الأدبَ ظِلٌّ من ظلال الحالة الاجتماعية، ولبيئته أثر كبير في تكوينه»[2].

***

مُقَدِّمات أحمد أمين

تُعدُّ مقدمات الكتب فتّاً له أصوله وأبعاده، فهو يُبْرِزُ فِكْرَ كاتبه واتجاهه وأسلوبه ومنهجه النقدي والأدبي، كما يكتسب أهمية قُصْوَى من كون المقدمة تقدم رؤية كاتبها التي يُبَلْوِرُ فيها فكرةَ الكتاب وموضوعَه وأهميته، وجهود المؤلف وخلفيته ومنهجه وإمكاناته وقدراته البحثية والأدبية، فبذلك يعرض صاحب المقدمة مفتاحَ شخصية المؤلف ومضمون كتابه وقيمته وأهميته في صفحات قليلة، تفتح الباب للقارئ ليتجول في رُبوع تلك الحديقة اليانعة من حدائق الأدب والثقافة والفكر؛ ليقطف من كل بستان ثمرة دون مشقة أو عناء.

وقد خَطَرَتْ لي فكرةُ أن أجمع مقدمات أحمد أمين التي كتبها لعدَّة مؤلَّفات، آثرتُ أن أُقَدِّمها في هذا الكتاب أنموذجاً للنقد التطبيقي عند أحمد أمين الباحث والناقد؛ إذ تعكس هذه المقدمات رؤيتَه ومنهجَه وأسلوبَه المعتدلَ في النقد؛ خاصة وهو من الأدباء القليلين الذين نهلوا من ينابيع الثقافة العربية والإسلامية، مع الإحاطة بالمدارس الأدبية والنقدية في الثقافات الأُخْرى.

---

(1) فيض الخاطر، المجلد الثالث، الطبعة السادسة1965 م، ص 119.

(2) فيض الخاطر: المجلد السادس. الطبعة الثانية 1961م، ص 67.

ويمكن التوسع في هذه الفكرة لجمع مقدمات كبار الأدباء لمؤلفات غيرهم، ووضعها تحت المجهر، وتقديمها ودراستها؛ وقد وفَّقني الله ـ سبحانه وتعالى ـ لجمع مقدِّمات أحمد أمين لمؤلفين مُختلفي المشارب والاتجاهات؛ لنتعرف عَلَى ملامحَ الرؤية النقدية عند أحمد أمين. ودونك أيها القارئ العزيز أسماء الكتب التي قَدَّم لها:

1- ديوان حافظ إبراهيم.

2- تاريخ القرآن، تأليف أبي عبدالله الزنجاني - عضو المجمع العلمي العربي في دمشق، طبعة القاهرة عام 1939م.

3- مؤتمر الآثار في البلاد العربية المنعقد في دمشق صيف عام 1947م.

4- الفن ومذاهبه في النثر العربي، تأليف شوقي ضيف، الطبعة الأولى عام 1946م.

5- ديوان إسماعيل صبري باشا، طبعة القاهرة عام 1938م.

6- الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، للدكتور عبداللطيف حمزة، طبعة القاهرة عام 1947م.

7- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ للعلامة الهندي أبي الحسن الندوي، الطبعة الأولى عام 1950م.

8- ثورة الخَيّام، للباحث العراقي عبدالحق فاضل، طبعة القاهرة عام 1951م.

9- العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، للمستشرق الألماني يوهان فك، ترجمة: عبدالحليم النجار، طبعة القاهرة عام 1951م.

10- أخبار أبي تمام، تأليف أبي بكر محمد بن يحيى الصولي، شرحه وحققه وَعَلَّق عليه كُلٌّ من: خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي، طبعة القاهرة عام 1937م.

11- سيرة السيد عمر مكرم، تأليف: محمد فريد أبو حديد.

ومن باب نسبة الفضل لأهله، لا بُدَّ من الإشارة إلى أن أول من رصد عناوين مقدمات أحمد أمين - ما عدا كتاب «سيرة السيِّد عمر مكرم» - هو الدكتور حَمْدي السَّكُّوت - جزاه الله تعالى خيراً - في كتابه المعروف «أعلام الأدب العربي المعاصر.. أحمد أمين». وهو عمل قيّم ونفيس يستحق كل ثناء وكل إشادة.

وهكذا تباينت المؤَّلفات التي قَدَّم لها أحمد أمين، ما بين دواوين شعر، وأبحاث تاريخية، ومؤلفات فكرية وأدبية ولُغوية. وكُلّها مقدماتٌ تُظْهِرُ الوجهَ النقديَّ والبحثي والفكري لأحمد أمين، وتَبرز فيها عُدَّتُه ومهاراته المعرفيَّة، والتمكُّن من أصول اللغة، ومن أسرار صناعتها، وأصول الشعر وقواعده، وَسِيَر الأعلام، وإلمامه بتاريخ مصر وتاريخ العرب؛ وتُخْرِجُه لنا في النهاية ناقداً أدبيّاً قديراً، وباحثاً رصيناً، ومحققاً بارعاً، يُلِمُّ بجوانب ما يحويه كُلُّ مُؤَلَّف ليقدمه لنا في صفحات قليلة تنمّ عن جوهر الكتاب ومضمونَه، ثم انطباع أحمد أمين نفسه عن المؤلف وكتابه.

وإذا أَمْعَنَّا النظر وأنعمنا الفكر في بعض هذه المقدمات ومنها مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، وجدناه قد أفاض في تناول شخصية حافظ إبراهيم وشعره، وظروف حياته الاجتماعية، والمؤثرات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي كَوَّنَتْ شخصيتَه، وكان لها عميق الأثر في شعره الاجتماعي والسياسي والوطني والوصفي والوجداني، فاستطاع أن يقدم لنا حافظ إبراهيم إنساناً وشاعراً من خلال ديوانه، وهو ما يمكن أن نرجعه إلى سببين، هما:

1- مشاركته في ضبط ديوان حافظ إبراهيم وتصحيحه وترتيبه والتعليق عليه مع الباحثَيْنِ أحمد الزين، وإبراهيم الأبياري.

2- حُبُّه وتقديره لشخصية حافظ إبراهيم، وتقديره لشعره، وتعاطفه مع شخصيته التي عَانَتْ كثيراً في الحياة، ولما مَرّ به من أحداث ومتاعب وبؤس.

***

فإذا كان أحمد أمين مُتَنَوِّعاً في اهتماماته البحثية والنقدية والأدبية، فإنه قد أَثْرَى المكتبةَ العربيةَ بدراساته لتاريخ الإسلام، التي أَصّلَ فيها للمؤثرات الاجتماعية والسياسية التي شَكَّلَتْ تاريخنا العربيَّ الإسلامِيَّ منذ فجر الإسلام.

وفضلاً عن بحوثه ودراساته التاريخية والنقدية، يُطِلُّ علينا جانبٌ مُهِمٌّ من جوانب أحمد أمين الأديب؛ وهو جانب المقال الأدبي الذي أبدع فيه في أثناء فترة رئاسته لتحرير مجلة الثقافة، حيث قدّم خلالها عشرات المقالات التي تُصَنَّفُ في خانة «فن المقال الأدبي». وهذا يحتاج لدراسة مستقلة تتناول بالشرح والتحليل مكونات هذه المقالات وقيمتَها، وأسبابَ تَفَرُّدها في مجال أدب المقال الصحفي.

وأعِدُ القُراء الأعِزَّاء - إن أعان الله ويسَّر وأنسأَ في الأجَل - بدراسةٍ مستقلة عن أحمد أمين كاتب المقال، وتقديم مجموعة من مقالاته الأدبية في الصحافة الثقافية التي لم يسبق نشرها في كتاب، والتي ظهرت فيها خصائص أسلوبه الذي يجمع بين البيان الرفيع والأسلوب السَلس ووضوح الفكرة وبساطة التركيب وحيويته؛ حتى نقترب أكثر من أحمد أمين كاتب المقال الأدبي، بعد أن تعرفنا إلى أحمد أمين الباحث والناقد والمحقق؛ فهما جناحان يتكاملان ليُمَثِّلا شخصية أحمد أمين الأدبية الشاملة.

***

وفي نهاية المَطاف لا أجد أبدع ولا أروع من هذه الكلمة التى كتبها الشيخُ العلامة الجزائري محمد البشير الإبراهيمي عن أحمد أمين بعد وفاته، رحمها الله تعالى:

«في مقدمة صفوف العلماء والأدباء الأستاذ أحمد أمين، وهو من أعيان علماء العصر، وألمع أدبائه.

ولقد تركت وفاته ثُلْمة في صفوف العلماء والأدباء لا إخالها تُسَدُّ في هذا الجيل، ومن يخلف أحمد أمين في دقة البحث، والتعمق، والتوجيه، وأصالة الرأي، والنقد النزيه!

تمتاز آثاره العلمية بتلك المميزات، وبالنزعة الدينية من غير تعصب أو تزمت، وهو رجل هادئ في بحوثه، صبور دؤوب يحترم نفسه، ويحترم قراءه، وأُقْسم يميناً برة أني ما قرأت له شيئاً إلا وخرجت بفكرة قويمة، وفائدة عظيمة.

عرفناه - كما عرفه غيرنا من قراء العربية - على صفحات مَجَلَّتَيْ الرسالة، والثقافة، وكتاب فجر الإسلام، وما تسلسل بعد من الضحى، والظهر، وكتاب يوم الإسلام، وكتاب حياتي فكان إعجابي به يتعاظم»[1].

ومهما يكن رأي الناس في أحمد أمين وفي بعض آرائه فلن ينكر أيّ منصف أنه كان من أركان النهضة الفكرية العربية الحديثة، ولا شك أن الذين جاءوا بعد أحمد أمين قد انتفعوا بدراساته وكتاباته العميقة الجادة.

***

وبعد؛ فإن جمع وتحرير ونشر مقدِّمات العالم والمفكر والأديب أحمد أمين لهذه المؤلَّفات، يعكسُ لنا طبيعة تكوينه الثقافيَ، كما يُظهِر ملامح شخصيته

(1) انظر: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، 105/4.

المعتدلة التي تَكْرَهُ الخوضَ في سفاسف الأمور وإثارة الخلافات والمشكلات والمسائل التي لا فائدة من ورائها، ولا جدوى للقارئ من طرحها، وَتَنْأَى عنها، وتُجامِل أحياناً، لكنها في النهاية شخصية جادَّة مؤثرة، تُقدم المعلومة والفكرة والفائدة بلا ترفُّع أو ابتذال، فضلاً عن أنه في مقدّماته يُضيءُ للقارئ بعضَ الجوانب الغامضة أو المجهولة في الكتاب الذي قَدَّمَ له، ويعرض لنا خفاياه ومزاياه.

وفي الختام أتوجَّه بالشكر لله عَزَّ وجَلَّ على تيسيره، ولطفه وحُسْن رعايته.. الذي هدانا لهذا وما كُنَّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وقبل أن أضع القلم أجد لزاماً عَلَيَّ أن أُزْجي الشكر الجزيل للأستاذ علي العميم الذي ما إن عرف أنَّ في أدْراجي مُسَوَّدة «مُقَدِّمات أحمد أمين» حبيسة مُنذ ثماني سنوات حتى بادر - مشكوراً مأجوراً - من تلقاء نفسه ومن حيث لا أعلم بترشيح هذا الكتاب وتزكيته عند الأستاذ محمد بن عبدالله السيف رئيس تحرير «المجلة العربية» الذي اعتمد بكل أريحيَّة نشره ضمن سلسلة «كِتَاب المجلة العربية» وقَدَّم مع زملائه الفضلاء في «المجلة» جميع التسهيلات اللازمة.. فجزاهم الله تعالى خير الجزاء وأحسن المثوبة.

والله سبحانه وتعالى وليُّ الإعانة والهداية والتوفيق، وهو المَرْجوّ والمؤمَّل وحده أن يُبارك في هذا الكتاب وينفع به، ويتقبَّله - جَلَّ شأنه - بقبول حسن، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم؛ لا رياء فيه ولا سُمْعَة.. وصَلَّى الله وسَلَّم وبارك على سيِّدنا ونبيِّنا محمد وعلى جميع النَّبِيِّين والمرسلين، وعلى آله وصحبه الطيِّبين الطاهرين.

محمد بن سعود الحَمَد

النقد والتقريظ[1]

بقلم / أحمد أمين

أصل كلمة النقد من نَقْد الدراهم وهو امتحانها ومعرفة الجيِّد منها، فهي بهذا المعنى لا تقتصر على ذِكْر العيوب والتشهير بها، بل تدل على استعراض الشيء والوقوف على محاسنه ومساويه.

وقد تُستعمل في معنى الذَّمِّ والعيب خاصة، ومنه حديث أبي الدرداء (رضي الله عنه): (إن نقدتَ الناسَ نقدوك، وإن تركتهم تركوك) فاستعمَل الكلمة بمعنى العيب والذم.

وهي بهذا المعنى ضد التقريظ؛ فالتقريظ مدحُ الشيء والثناء عليه، مأخوذ من قرظ الجلد: دبغه بالقرظ، وقرَّظه: بالغ في دباغه. وسَمَّوْا المدح تقريظاً؛ (لأن المقرِّظ يحسِّن ويزيِّن صاحبه كما يحسن القارظُ الأديم). وبهذا المعنى يستعملها الكتّاب المحدثون، فيعنون بالنقد ذِكْر المساوئ وبالتقريظ ذكر المحاسن.

ولست أعرض في مقالي هذا للكلمتين من الناحية الأدبية، فلا أعرض لمذاهب النقد الأدبي ومقاييسه، كما لا أعرض لأساليب التقريظ وألوانها؛ وإنما أعرض لظاهرةٍ نفسية تلفت النظر: هي أن الناس على اختلاف درجاتهم في البداوة والحضارة والرقي والانحطاط؛ ولعون بالنقد أكثر من ولعهم بالتقريظ ومولعون بالبحث عن العيوب وإظهارها والمبالغة في تصويرها أكثر من ولعهم بالبحث عن المحاسن وإظهارها وتصويرها، وهم في ذلك بين اثنين: إما ممثل على المسرح يمثّل دور الباحث عن العيوب المتجسِّس على السَّقَطات، يستبشر كلما عثر على خفايا الزَّلّات، ويقيس نجاحه بمقدار ما

(1) فيض الخاطر: أحمد أمين، الجزء العاشر، مكتبة النهضة المصرية، ص 172

كشف من أخطاء، وإما شاهد لهذا المنظر أكثر ما يهتم له العيبُ الفاضح والسقطة الشنيعة، يطيل التصفيق لكاشف الزلل، ويمنح الإعجاب مَن أصاب من آخَرَ مَقْتَلاً.

ومظاهرُ ذلك في الحياة كثيرةٌ، فلا تكاد تجد عظيماً بإجماع، ولكنك كثيراً ما تجد أصاغر؛ لأن النفوس ترتاح لمنظر الحقير إذا خرج من ميدان المنافسة، ونزل عن مستوى المقارنة، ويُضْنِيها العظيم فتتلمس وجوه النقص فيه، وتخلقها إذا لم تكن، وتبالغ فيها إن كانت؛ لأن العظيم يكلِّفها العناءَ في إدراك شَأْوِه وبلوغ منزلته.

ومن مظاهر ذلك أن مجلات عديدة في العالم كله تعيش على النقد، وليس هناك - فيما أعلم - مجلاتٌ تعيش على التقريظ، وقد أدركتْ هذه المجلات إدراكاً صحيحاً هذه الظاهرةَ النفسية ورأت أن رَواجها يكون أتَمّ كلما ارتفعت نَغْمةُ هجوها، وكلما كان نقدها أقذع وسهامها أنفذ، والجرائد في العالم تبذل المدح بالحَبّة والنقد بالقنطار، ومن آية ذلك أن الناس في كل أمة يَقْدُرُون - غالباً - جرائد المعارضة أكثر من قَدْرِهم جرائدَ التأييد، فإذا تغيرت الحكومات وأصبحت جرائد المعارضة بالأمس جرائد تأييد اليوم، نزلت قيمتها من ناحية أنها لم تعد تروي رغبات الناس وشهواتهم.

ثم، ما النقد الأدبي؟ أليس هو في الغالب إرضاءً لعاطفة البحث عن الغلط والتشهير به؟ إذا مدح النقاد؛ فبحذر وقدر. وأكثر مدحهم (طعم) يستدرجون به القُرّاء لإقناعهم بأنهم عُدولٌ في تقديرهم، منزهون في ذَمِّهم ومَدْحهم، حتى إذا اطمأن لهم القارئ بالغوا في النقد، وأسرفوا في اللوْم. وأكثر الناشئين من الأدباء يتطلبون الشهرة من طريق مهاجمة النابغين، والتعرض لهم، والتسميع بهم، حتى إذا تصدَّوْا للرد عليهم رفعوا من شأنهم إذْ جعلوهم في منزلتهم. وقديماً حكى لنا (بشار بن برد) أنه وهو ناشئ هجا

جريراً، فأعرض عنه واستصغره، ولو أجابه لكان كما يقول أشعرَ الناس. قد يكره الناسُ الناقدَ الجريء ولكنهم يهابونه ويلتفُّون إليه ويشجِّعونه على أن يبني نفسه من أنقاض ما هدم من غيره.

ومما نلاحظه ارتياح الناس للهازئين الساخرين، ومن هذر منهم من هزء وسخرية على شرط ألا يكونوا هم موضع الهزء والسخرية. فأوسع أبواب الظرف والكياسة، وأشدُّ ما يستخرج الضحك والإمعان فيه، ما لذع به الناس في أعراضهم وأخلاقهم ومَلَكاتهم، والذي يعدّه الناس لطيف الروح خفيف الظل، بارع الظَّرْف، هو مَن يومئ الإيماءة الفاتكة، ويرشح لسانه باللفظ يقتل به البريء الغافل، ويضحك به اللاهي الماجن.

وقد تقام حفلات التكريم للإشادة بصفات عظيم، أو التنويه بما قام به من عملٍ جليل، ولكن أكثرها حفلات تأبين تُقام بعد أن اختفى المحتفَل به عن المسرح، وغاب عن الأنظار، أو بعد أن أعجزته السن وخرج من ميدان العمل والمنافسة، أو هي حفلات تجارية أقيمت لمنفعة المحتفلين لا المحتفَل بهم. الحقُّ أن هذه العاطفة - عاطفة البحث عن الخطأ وإذاعته والولوع بالنقد أكثر من الولوع بالتقريظ - عاطفةٌ تشارك الإنسان في جميع أدواره.

وتعليلها - على ما يظهر - يرجع إلى غريزة الأثرة وحُبِّ النفس، كأن الإنسان يرى أن القول بعيوب الناس يتضمن القول بتفوُّقه، والتشهير بأغلاطهم إقرار سلبي بنبوغه، والعمل على تحقيرهم قد ينتج مع الزمن انفراده بالعظمة، والسخرية منهم تستتبع الاعترافَ بجلاله وحْده.

ولكن المدنية والحضارة، والرقي العقلي والخلقي؛ تهذِّب من هذه العاطفة، كما تهذب من سائر العواطف؛ فالناقد المهذَّب يكتفي بالتلميح دون التصريح، وبالإشارة دون التجريح، يقول ما في نفسه ولكن يتخير الألفاظ

ويتخير المواقف، ويترفع عن ألفاظ الغَوْغاء وأساليبهم، والمقارنة بين الجرائد والمجلات. وأساليب النقد في الأمم المختلفة تؤيِّد هذا كل التأييد.

لو سار الأمر على المعقول لخَفَّ كثير مما يصدر من لوم ونقد؛ لأنه أساس إمكان المسؤولية، فإذا لم تكن فلا لوم؛ فلسنا نلوم المرضى إن لم يأتوا بأعمال الأصِحّاء، ولا نلوم البدويَّ كما نلوم الحَضَري، ولا نلوم الجاهل بما نلوم به العالم، ولا نلوم الطفل في المدارس الابتدائية إذا لم يحلّ معادلةً جبرية أو نظرية هندسية.

إنما نلوم الإنسان عندما يكون في الإمكان أن يفعل خيراً مما كان، ولو قَدَّر اللائمون تقديراً حقّاً ما يحيط بالمَلُوم من حالة عقلية وجسمية وبيئة اجتماعية ومن عواملَ خفية معقدة يصدر عنها العملُ؛ لخففوا من غُلَوائهم، ولطَّفوا من لومهم، ولعلموا أن استحقاق اللوم نسبي يرتبط بالسن، وبدرجة الثقافة والمدنية، وحالة الفرد في أمته، وموقف أمته في العالم.

ولو سار الناقد على المعقول، لوقف موقف المصلح لا موقف الجاسوس يهمُّه أن يرى الخطأ ليبرهن على كفايته، ويسرُّه أن يرى العيب ليقبض على فاعله، وكلما أوغل في استكشاف العيب الدفين، وتعمّق في إظهار جريمة مستورة كان أدلَّ على قدرته ونبوغه، ويأسف، لم يكن عيبٌ كأنه يشعر شعوراً باطنيّاً أنه إرهاصٌ بأن لا حاجةَ إليه والمصلِح يستكشف العيب لا ليُشْهَرَ به، ولكن ليعالجه. وأقصى أمانيه ألّا يكون عيباً، وإذا كان فإنه يداوي، ويعتقد أن مهمته تتم – مع السرور – يوم يزول المرض ويتلاشى النقص، وأنه بنقده ولومه إنما يصف دواءً يستأصل الداء ويأتي عليه. وأسوأ ما نرى أن يكون الناقد كالفرس الجَمُوح ينال من الناس ببهرجه وخبطه، أو أن يقف في نقده موقف الغِرِّ يداعب بالنار، أو الطفل يلعب بالسِّكِّين.

***

أمانة الكلمة في مقدمات الكتب[1]

قال العلَّامة أ.د.محمد رجب البيُّومي - رحمه الله تعالى - :

يحرص كثير من مؤلفي اليوم على أن يصدِّروا مؤلفاتهم بمقدمات يكتبها من يعطفون عليهم من المشهورين والمغمورين معاً، وأكثر ما نقرؤه من هذه المقدمات يميل إلى الإسراف في الثناء، ويتحدث عن المؤلف أكثر مما يتحدث عن الكتاب، مع أن مهمة المقدمة الأولى هي تسليط الضوء على ما جاء بالكتاب من إضافات جديدة لا توجد في سواه، فإذا تعذرت هذه الإضافات فمجال الحديث يتجه إلى أهداف الكتاب ومنهجه الفكري ومنحاه التعبيري، وقد يخالف المقدِّم صاحب الكتاب في بعض آرائه فيشير إلى وجهة نظره دون حرج، وهذا ما كنا نعهده في جيل الرواد حين كان التقديم وقفاً على النابهين من ذوي الحيدة والتوجيه.

وفي مقدمات العقاد وطه حسين وهيكل ومنصور فهمي وأحمد أمين وشكيب أرسلان.. وغيرهم من أساطين النهضة الفكرية؛ ما يضرب المثل الرائع للمقدمة الناجحة، ولكن الأسف يحرج الصدور اليوم حين نشاهد أصحاب المقدمات وقد تحولوا إلى أبواق، ويزداد الأسف مرة ثانية حين نرى الجميل يرد سريعاً عن طريق التبادل، إذ سرعان ما يصدر صاحب المقدمة كتاباً يتولى تقديمه من قوبل بالإطراء من قبل، وكأن المسألة أصبحت ديناً مفروض السداد، ويمضي الأمر على سننه المنتظر، وكأنه أمر طبيعي لا خلاف فيه.

---

(1) من منطلق إسلامي: محمد رجب البيّومي، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، 1408 هـ / 1988 م، 1 / 247.

تبرم واستخفاف:

وحين تواجه أحد هؤلاء بكلمة الحق فيما يرتكب من زيف، وتضرب له المثل بنماذج من المقدمات النقدية الرائعة؛ يكبر عليه أن يصغي لتوجيهك ويشتط فينتقص من تشير إلى مقدرتهم من ذوي البراعة في التقديم، ويرميك بالجمود على أسلوب فات أوانه، والهيام بأناس أدوا دورهم في زمان غير هذا الزمان، وقد يكون من المفيد لهؤلاء أن يقرأوا وجهة نظرك مدعمة بالدليل، فإذا لم يجدوا فيها موضعاً للإقناع فحسبك أن تصيح بملء فمك: ألا هل بلغت، اللهم فاشهد!

إن على الناقد الذي يتولى التقديم أن يعرف مجال تفوقه، فلا يقدم أثراً بعيداً عن تخصصه، ولن ينقصه أن يعتذر عن تقديم عمل فكري لا يمت إلى ثقافته، بل يزيده ذلك سمواً وتقديراً، لأنه يبرز معدنه الخلقي ساطعاً كالذهب الخالص، وقد رأينا في أدبائنا الكبار من قدر مكانة الكلمة، وعرف أنه النقد، فحرص على أن يبدي سريرته العلمية لقارئه شفافة ناصعة دون حجاب، وضرب أرفع أمثلة القدوة، حين أعلن ذلك في تواضع مثالي.

لقد كان الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق ذا حياء نادر، يعصمه أن يرد راجياً دون أن يحقق طلبته، وهو في الوقت نفسه فيلسوف أخلاقي يتمسك بمقدسات الأمانة والصدق والإخلاص، فلا يسمح لنفسه أن يصدر حكماً نقدياً لا يطمئن إليه، وقد جاءه الأستاذ مصطفى الصاوي أحد مدرسي علم العروض بالأزهر، ليكتب مقدمة لكتاب عروضي وضعه لطلابه، والأستاذ الأكبر عالم أزهري درس العروض وامتحن في مسائله العويصة، وهو بعد شاعر رويت له القصائد والمقطوعات، ولا يعجزه أن يصدر حكماً نقدياً في كتاب مدرسي يتحدث عن علم مدروس، وفي استطاعته أن يعلن رأيه دون أن يسمع أدنى نكير من مخالف! ولكن الفيلسوف المثالي يكتب مقدمة بالغة المغزى يقول فيها.

مقدمة الأستاذ الأكبر:

(طلب إلي فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الصاوي المدرس بمعهد القاهرة أن أكتب مقدمة لكتابه في العروض، ومع أني درست العروض، وحفظت في عهد الطلب بعض متونه المشهورة، وأديت فيه امتحاناً في العالمية بنجاح منذ عهد، ومع أني كنت أقول في شبابي شعراً، ولا أزال أميز بين الشعر والمنثور؛ ولكني أعترف أني لست عروضياً بالذوق، ولا أعتبر نفسي فنياً في العروض، وإذن فإني أرى من الجرأة أن أضع مقدمة لكتاب رجل فتي يشتغل منذ سنوات كثيرة بتدريس العروض.

ولكن لا يسعني إلا أن أثني على أستاذ يضع مجهوده في صورة كتاب يقدّمه للناس، ليستفيدوا من ثمرة مجهوده من ناحية، وليستفيد هو مما قد يصل إليه من ملاحظات، وأعتقد أن هذه هي السبيل إلى بلوغ الكمال لأن المؤلف يستطيع على هذا الوجه أن يعيد طبع كتابه فيوضح ويستكمل، وعلى هذا الاعتبار أشكر للأستاذ الفاضل مجهوده وإخلاصه لفنّه، واسأل الله أن يوفقه إلى الكمال والنجاح).

هذه سطور قليلة لا تعد شيئاً بالنسبة إلى المقدمات الضافية التي تتعدد صفحاتها في أوائل الكتب، ولكن جدوى هذه السطور القليلة لا يقل عن جدوى هذه المطوّلات، لأن الإمام الراحل قد وضع مبدأ التخصص وأكده، ودعا إلى الأخذ به، ولأنه اعتصم بخلقه المتواضع حين أعلن أنه لا يستطيع أن يكون مقدماً لكتاب عروضي ألفه متخصص! وزاد في التواضع فأعلن أنه لا يزال يميز بين النثر والشعر، وكأنه ليس من أعلام النثر وصاغة الشعر، وصاحب الدراسات الأدبية عن المتنبي والبارودي والبهاء زهير! وهو بهذه الدراسات أهل لأن يحكم فيصيب، أما دعوته الدارسين إلى التأليف، والمتخصصين إلى النقد كي يحصل النفع العلمي المقرّب إلى بلوغ الكمال، فهي دعوة الحريص على اطراد التأليف، واستكمال أدواته، وتوقع التخطئة والتصويب!

إمام آخر:

عظمة الأستاذ الإمام الشيخ محمد مصطفى المراغي لا يحدها مقال، وحديثنا الآن عن مقدمته الرائعة المسهبة الممتازة لكتاب (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية)، وهو محاضرة علمية ألقاها الأستاذ الكبير أمين الخولي في مؤتمر الأديان الدولي السادس المنعقد في بروكسل سنة 1935م، ليثبت أمام الصفوة من مفكري العالم أثر الإسلام البارز في كل إصلاح ديني قام منذ ظهوره، والموضوع في مكانه ومناسبته وبيئته من الدقة والحساسية بحيث لا يقوم به إلا مفكر جاد صوَّال منطيق، كالأستاذ أمين الخولي، وقد أبان شواهد الاتصال الديني والمعنوي بين الديانتين بأدلة تاريخية، لا تقف أدنى شبهة فيها ليصل إلى النتيجة الحاسمة وهي توضيح أثر الإسلام في الإصلاح المسيحي. وحين أراد نشر كتابه، احتفل الإمام المراغي بتقديمه احتفالاً دلّ على يقظة فكرية، وأمانة علمية لا ينقضي مدى الإعجاب بهما؛ إذ عرض المراغي في مقدمته المسهبة رؤوس الأفكار الدقيقة التي ألمَّ بها الأستاذ الخولي ليناقشها مناقشة الدارس البصير، وليوافق ويخالف، ويركن إلى الدليل الذي أثبته الكاتب تارة، وليمضي به إلى وجهة أخرى تارة ثانية، وقد كتب الأستاذ الخولي تعليقاً كاشفاً على مقدمة المراغي قال فيه: (ألف الناس أن تكون مقدمات الكتب أشبه بالتقريظ، لكن أراد الله أن تكون هذه المقدمة مثلاً من حرية الفكر، ونزاهة النظر الديني في مناقشة مولانا الأستاذ الأكبر لنتائج هذا البحث، بما تركته بين يدي القارئ دون تعليق).

وكان من المنتظر لدى بعض قصار النظر أن يكتفي إمام المسلمين الأكبر بالتأييد والتبريك والدعوات الصالحة، ولكن حساسية التبعة الفكرية جعلته يناقش الفكرة الرقيقة مناقشة من لا يغفل أدنى احتمال يمكن أن يطرأ في خاطر مناقش متمرس، ليقدم للناس أنموذج الدقة الحريصة، والأمانة الواقية، ونمثل لذلك بما ذكره الأستاذ الخولي من تحرر العقل البشري في أوروبا بما نقل عن الإسلام

مـن تعاليـم هذا التحرر، وقد أثبت الكاتـب طرق هذا النقل وزمانه ورجاله بما لا ينكـره منصـف، ليثبت أدلة الاتصال الواضحة بين الحركات الكنسـية، والثقافة الإسلامية.

وكل دارس لهـذه الحقبـة لا يسـتطيع أن ينكـر أدلة الأسـتاذ الخـولي، ولو عبرها الأسـتاذ الأكبـر المراغـي دون نقاش ما خطر ببـال ناقد أن يعترض عليه، ولكن الإمـام الكبـير يلجـأ إلى بعض التحفـظ المتحرز حـين يقول في دقة بلغـت مبلغها البعيـد مـن الأمانة العلمية: (قد يقال إن تحرر العقل البشـري أثر من آثار العقل نفسـه، إذ إنـه خلق حـراً طليقاً يغضبه أن يقع في الأسـر والحجـر، ولما طال عليه الأمد في قيوده لم يسـتطع الصبر، فحاول تحطيم الأغلال والقيود، واستطاع بما ألقتـه الفلسـفة أمامه من الضوء أن يفـوز ببغيته، وأن يعود إلى طبيعته حراً، هذا ممكن وقريب جداً، لكن الذي قرب الفلسـفة وقدمها هو الإسـلام فهو بسـبيل أن يكون له شـأن في تحرير العقل البشـري في الغرب بعد استعباده العنيف، وإخلاده إلى الركود).

هـذا مثـل حساس لأمانـة الكلمـة في مقدمـات الكتـب، وليس مثـلا فريـداً لدى المراغي، إذ إنه ألف النقاش العلمي في كل مقدمة صدر بها البحوث الجادة، وقد ذاعـت مقدمتـه الرائعة لكتـاب (حياة محمد) الذي ألفه الكاتـب الكبير الدكتور محمد حسـين هيكل، ذاعت المقدمة بذيوع الكتاب المنتشـر في كل مكان، والمتعدد الطبعـات في الفـترات المتلاحقـة، وقـد قال الدكتـور هيكل عن كتابـه: (إنه يكون أدنـى إلى الحـق حين يذكر أنه بـدأ هذا البحث في العربية علـى الطريقة العلمية الحديثة التي تقتضيك عند البحث أن تمحو من نفسك كل رأي وكل عقيدة سابقة في مجال البحث، لتبدأ بالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائـم علـى هـذه المقدمـات العلميـة، وهـذه الطريقة هي أسـمى ما وصلـت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر، وهي مع ذلك طريقة محمد وأساس دعوته).

هذا ما قاله هيكل وقد عقب عليه المراغي في مقدمة حياة محمد بقوله: (أما أن هذه الطريقة طريقة القرآن فذلك حق لا ريب فيه، وأما أن هذه الطريقة حديثة، فهذا ما يعتذر عنه، وقد ساير الدكتور غيره من العلماء في هذا، ذلك لأنها طريقة القرآن كما اعترف هو، ولأنها طريقة علماء سلف المسلمين، ففي كتب الكلام نجدهم يقررون أن أول واجب على المكلف معرفة الله، فيقول آخرون لا، أول واجب هو الشك، ولا طريق للمعرفة إلا البرهان، وهو وإن كان نوعاً من أنواع القياس إلا أنه يجب أن تكون مقدماته قطعية حسية، أو منتهية إلى الحسّ، أو مدركة بالبداهة، أو معتمدة على التجربة الكاملة أو الاستقراء التام، وكل خطأ يتسرب إلى إحدى المقدمات أو إلى شكل التأليف مفسد للبرهان، وقد جرى الإمام الغزالي على الطريقة نفسها، فقرر في أحد كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر وقدر ورتب ووازن وقرب وباعد وعرض الأدلة وهذبها، ثم اهتدى بعد ذلك إلى أن الإسلام حق، ومضى المراغي في تأييد منحاه في إشباع مقنع لينتهي إلى أن قانون الدكتور في بحثه العلمي معروف مألوف لدى علماء الإسلام.

الشبيبي والرصافي:

ألف الدكتور بدوي طبانة كتاباً قيماً عن الرصافي، وعهد إلى العالم الشاعر الشيخ محمد رضا الشبيبي بتقديمه، ومنحى الشبيبي خلقاً وسلوكاً لا يوافق منحى الرصافي، وكذلك مذهبه الشعري ينأى عن مذهب الرصافي والزهاوي وكل متجرئ على الحقائق، فالالتقاء بين كاتب المقدمة والشاعر المدروس بعيد، وقد حرص الشبيبي أن تكون مقدمته صورة لما يعتقد، فبسط القول في واقع العراق السياسي والاجتماعي ليبين مشرب الرصافي ومن اتجه وجهته في تناول الحياة شعراً وملابسة ومعاناة، وكان صريحاً كل الصراحة

حين قال في المقدمة:

(وشعر الرصافي طافح بالعبث والمجون، قلما سما به عن مستوى الحياة المادية. ولا بدع، فهو من الأدباء الذين يجنحون بأدبهم إلى الواقع، ويخاطبون العقول، ولا شأن لهم بمخاطبة القلوب ولا بمناجاة المثل العليا، وليس من الحكمة فيما أرى نسج من ينسجون في الآداب الرفيعة، والفنون السامية على هذا المنوال، فالحكمة هي الاعتدال في كل شيء، وتجنب الإفراط والتفريط، وخير المذاهب الأدبية توسط ذويها بين السبح في عالم الأوهام والأخيلة الباطلة وبين التمرغ في حمأة المادة).

هذا بعض ما قاله الشبيبي في المقدمة، وقد ثار عليه المعترضون من أنصار الرصافي، فكتبوا نقداً كثيراً لما دار حوله من معان. وطبيعي أن يكثر المعارض والموافق في حديث يكتب عن شاعر متحرر مندفع، ولكن ما يجب أن نلتفت إليه أن الشبيبي شيخ من كبار شيوخ الدين في عصره، وأن آدابه الخلقية تنأى به عن مهاوي التحلل، ومن قول الحق في اعتقاده أن يجهر بنقد المتحللين مهما رزقوا الذيوع والاشتهار، كما أن الشبيبي ذو مذهب في الصقل البياني يميل إلى الترصّن والتأنق، والاهتمام بالمعنى الدقيق، وليس كالرصافي يطلق العنان لشاعريته فتنطلق دون تنقيح، ولا بد أن يفصح عن منحى صاحبه الذي لا يرتضيه! وقد قرأ كتاب الدكتور بدوي طبانة قراءة فاحصة وأمد المؤلف بتعليقات متتابعة على بعض ما خالف فيه، فنشرها في هوامش كتابه، ولن يكون ذلك الاحتفاء البالغ إلا صدى لالتزام أدبي يعتنقه صاحب المقدمة، ويعد نفسه مسؤولاً عن حقائق كتاب قام بتقديمه للقراء، وهو مذهب شاق الاحتمال، عسر التكلفة، ولن يأخذ به غير ذوي العزم من الأصلاء.

عجب لا ينفد:

أما العجب الذي لا ينفد حقاً، فهو ما اتجه إليه أستاذ كبير في كتابة مقدمة لكتاب ألفه شخصياً، حيث غمره تواضع علمي كاد يبخسه حقه بخساً لا هوادة فيه، وهو مثل حي نقدمه لمن يتحدثون عن أنفسهم في مقدماتهم المضحكة، وكأنهم كتبوا أمجد الفتوح العلمية بما كرروه، نقلاً دون تجديد، فقد كان الباحث الأمين الضليع الأستاذ محمد أحمد حسونة بك أستاذاً للتاريخ الإسلامي بجامعة القاهرة، ونشاطه التأليفي والتربوي مشهور متعالم، ولكنه أجبر على تدريس مادة (الجغرافيا التاريخية الإسلامية) بكلية دار العلوم، ولا بد أن يسعف الطلاب بكتاب يضم أشتات هذه المادة، وقد قام بجهد مشكور يظهر أثره النافع في صفحات الكتاب، ولكنه أدهش قارئه بقوله في مقدمة كتابه:

(وبعد فإن كلية دار العلوم رأت أن يدرس لطلابها شيء من الجغرافيا التاريخية الإسلامية، يعينهم على تفهم التاريخ الإسلامي وما يرتبط به، وقضت الظروف أن يسند إلي تدريس هذه المادة الجديدة التي لا أعلم لها كتاباً في اللغة العربية، ولما كنت عديم الخبرة بهذا الموضوع، فقد رجوت بعض علمائنا الفطاحل أن يكتبوا فيه، ولو كانت كتابتهم مقصورة على العناصر المهمة، ولكنهم اعتذروا بضيق وقتهم، ومن ثم عكفت على تتبع آثارهم، وجعلت أساس عملي رسالة قدمها الأستاذ حسن بك جوهر فاحتذيتها احتذاء يكاد يكون كلياً، واستعنت بما كتبه سعادة الأستاذ مصطفى عامر بك وكيل وزارة المعارف، وحضرة الأستاذ عباس عمار بك، ولم أتورع عن الأخذ من كتابات هؤلاء الأعلام، وكثيراً ما نقلت أفكارهم بأسلوبهم خشية أن أضلّ، إذا حاولت تغيير الصيغة التي اختاروها، ورحم الله امرأ عرف حدود جهله، ووقف عندها، فما جاء في هذه الوريقات من صواب، فمرده

إلى هؤلاء العلماء وأمثالهم، وما ورد فيها من الخطأ فمرجعه إلى تقصيري، ورجائي أن يكون من الجسامة بحيث يحفز أحد هؤلاء المتخصصين إلى التأليف في موضوع حان الوقت لتدريسه).

فماذا يقول القارئ في هذا التواضع المذهل؟ وماذا يقول مرة ثانية إذا علم أن الكتاب الذي ألفه الأستاذ حسونة أثر علمي يشرف صاحبه بالقياس إلى ما ينحو منحاه من المؤلفات؟ ثم ماذا يقول مرة ثالثة في نفر من المؤلفين يسرقون كلام السابقين، ويعزونه إلى أنفسهم، ويحاولون ستر جرائمهم بالتهجم عليهم حين يصطنعون معارضة زائفة لبعض أقوالهم، وكأنهم بلغوا مبلغ من صحح أخطاء أساتذته! وهو عيال على ما اختلسه منهم دون حياء!

لقد كان في مقدور الأستاذ حسونة أن يعلن أنه يؤلف في موضوع جديد، وأنه استعان ببعض المراجع السابقة ليضيف إليها ما فتح الله به عليه! ولو قال ذلك ما اعترضه أحد، ولكنه يضرب المثل الحي لتلاميذه حين يقول لهم في مقدمة كتابه: (وكثيراً ما نقلت أفكار هؤلاء بأسلوبهم خشية أن أضل إذا حاولت تغييراً للصيغة التي اختاروها، ورحم الله امرأ عرف حدود جهله فوقف عندها)، وكأنه يصارحهم، بأنه مهما بلغ مبلغة من الأستاذية طالب علم صغير، فعليهم أن يفهموا ذلك عن نفوسهم، مهما قطعوا أفسح الأشواط وبلغوا أبعد المسافات!!

هذه مثل ذات دلالات، فأين من يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله.

***

مُقَدِّمات أحمد أمين
لكُتُبِ الآخَرِين

هدية من المؤلف
إلى فضيلة الأستاذ عبد ...
مع ... آيات التقدير والاحترام

لجنة التأليف والترجمة والنشر

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

تأليف

السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي
نائب معتمد دار العلوم بندوة العلماء
لكهنؤ — الهند

الطبعة الأولى

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

طلب مني الأستاذ الهندي أبو الحسن عليٌّ الحسني أن أقدم له كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)، ومعذرة للقارئ إذا رأى فيه بعض عبارات غامضة، فإن الكاتب الفاضل هندي الأصل والثقافة، مثقف ثقافة عربية بجده واجتهاده؛ على أن الكتاب (والحق يقال) لا يخلو من تشبيهات بليغة رائعة.

والكتاب يدور حول فكرة جليلة، وهي محاربة ما في نفوس المسلمين من مركب النقص بإحساسهم بضعفهم، وانحطاط نفوسهم، وإعزازهم للمدنية الغربية، وإعلاء شأنها أكثر مما تستحق؛ فقاوم المؤلف الفاضل هذه الفكرة وأفهمهم أنهم يجب أن يعتزوا بدينهم؛ وأفهم الغربيين أنهم ينقصهم روح الإسلام؛ ليسودهم الهدوء والطمأنينة والسلام؛ وهي فكرة جليلة تستحق كل الإعجاب.

وقد أذكرني هذا الكتاب ومعالجته لهذه الفكرة بكتاب آخر لمستشرق نمساوي مسلم سمَّاه (الإسلام في مفترق الطرق)، وهو أيضاً يدق على هذا الوتر، فعسى أن تتابع الكتب من هذا القبيل حتى يشعر المسلمون شعوراً تامّاً بأن دينهم - وهو الإسلام - جدير بأن يُعتز به، وهو الذي ينقص العالم الغربي اليوم؛ فهو مؤسس تأسيساً تامّاً على وحدانية الله، وألَّا معبود سواه؛ كما أنه مؤسس على العدل والحرية والدعوة إلى السلام والطمأنينة وخير الإنسانية، وهذه كلها هي ما تحتاج إليه أوروبا في الوقت الحاضر.

فإلى المؤلف الفاضل نقدم شكرنا على نجاحه في فكرته، وسعة اطلاعه، وتدعيم قضاياه بالحجج القوية البيّنة، والسلام.

* * *

وزارة المعارف العمومية

ديوان حافظ إبراهيم

ضبطه وصححه وشرحه ورتبه

أحمد أمين
أستاذ اللغة العربية
بالجامعة المصرية

أحمد الزين
بالقسم الأدبي
بدار الكتب المصرية

ابراهيم الابيارى
المدرس
بالمدارس الأميرية

الجزء الأول

ويشمل :

المدائح والتهانى ، الأهاجى ، الإخوانيات ، الوصف ،
الخمريات ، الغزل ، الاجتماعيات

(راجع هذه الطبعة "محمد مختار بونس" المفتش بوزارة المعارف)

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٨هـ — ١٩٣٩م

معلومات رسمية عنه مستقاة من ملف خدمته المحفوظ الآن بإدارة المعاشات:

1 – لم يُعرف بالضبط تاريخ مولده، ولم يعرفه حافظ نفسه، كما أقرَّ بذلك، وقد عُرض على (القومسيون) الطبي عندما أريد تعيينه في دار الكتب، فقدَّر سنَّه تسعاً وثلاثين سنة. وكان الكشف الطبي عليه يوم 4 فبراير سنة 1911م، برئاسة الدكتور بتسي؛ وهذا هو السبب الذي اعتمد عليه من قال: إنه وِلد يوم 4 فبراير سنة 1872م، وهو سبب واهٍ كما ترى.

2 – كتب حافظ بخطه ما يأتي: (ولدت في ذهبية (أي حرَّاقة) بالنيل، بالقرب من قناطر (ديروط) بالصعيد).

3 – كُتب إلى (ديروط) للبحث في الدفاتر عن تاريخ ميلاد حافظ، فأجابت بأنها بحثت من سنة 1870م إلى سنة 1880م فلم تعثر عليه في دفاترها.

4 – كتب حافظ بخطه أن (أباه اسمه إبراهيم فهمي، واسم أمه الست هانم كريمة أحمد البورصه لي بك).

5 – (الدبلومات) والشهادات الحاصل عليها: (عريضة ملازم أوَّل).

6 – وظائفه:

في وزارة الحربية:

	من	إلى
ملازم ثانٍ	1891/2/13م	1893/7/13م
ملازم أوّل	1893/8/1م	1894/5/6م

في وزارة الداخلية:

	من	إلى
ملاحظ مركز بني سويف	1894/5/7م	1895/3/23م
معاون بوليس مركز الإبراهيمية	1895/3/24م	1895/10/15م

في وزارة الحربية ثانية:

	من	إلى
أُحيل على الاستيداع	1895/10/16م	1896/3/17م
ملازم أوَّل بإدارة التعيينات	1896/3/8م	1900/5/2م
أُحيل على الاستيداع	1900/5/3م	1903/10/31م
أُحيل على المعاش	1900/11/1م	

7 – كانت إحالته على المعاش بناء على طلبه، فقد كتب تظلماً قال فيه: (إنه مكث بخدمة الجيش 12 سنة، ولم يحصل فيها على غير رتبة ملازم أوَّل، ومضى عليه أربع سنوات وهو في الاستيداع، وإنه فقد الأقدمية، ويلتمس إحالته على المعاش؛ ليتمكن من وجود شغل له يقوم بنفقته ونفقة عائلته الكبيرة التي لا يقوم مرتب الاستيداع بلوازمها). (وبناء على ذلك تقرر إحالته على المعاش كالتماسه).

8 – كان مرتبه في الاستيداع 4 جنيهات.

9 – في أثناء خدمته بإدارة التعيينات سافر إلى السودان، وقد أمضى فيه مدَّة، منها:

يوم	شهر	
15	9	في سواكن.
5	2	في سواكن وطوكر.
-	10	قبلي حلفا.

10 - حينما أُحيل إلى المعاش كتب وكيل الحربية ما نصه: (إن محمد حافظ إبراهيم الملازم أوَّل المحال على المعاش سلَّم السيف والقايش (الذين كانوا في عهدته).

11 - عُيِّن رئيساً للقسم الأدبي بدار الكتب في 1911/3/14م تحت الاختبار، بمرتب قدره 30 جنيهاً، وفي 1912/4/1م عُيِّن بصفة دائمة، وفي 1916/2/7م عُيِّن رئيساً لأحد الأقسام بدار الكتب أيضاً.

12 - كتب وهو في سنِّ الخامسة والخمسين يطلب إحالته على المعاش، وأن يُعطى خمسين جنيهاً شهريّاً؛ لأنه خدم اللغة والأدب مدَّة طويلة، فلم يُجَب إلى طلبه.

13 - ظل مرتبه في دار الكتب يزيد إلى أن بلغ ثمانين جنيهاً.

14 - أُحيل إلى المعاش من دار الكتب في 1932/2/4م.

15 - مجموع مدَّة خدمته في الحكومة: 35 سنة و4 أشهر و29 يوماً، وبيانها كالآتي:

يوم	شهر	سنة	
8	6	14	مدّة خدمته في الحربية والداخلية.
21	10	20	مدّة خدمته بدار الكتب.

16 - ملف خدمته مملوء بطلبات الإجازات الاعتيادية والمرضية. وفي سنة 1923م طلب إجازة ثلاثة أشهر لقضائها خارج القطر ابتداءً من 30 أغسطس.

حياته:

حوالي سنة 1872م، كانت سفينة (ذهبية) ترسو على شاطئ النيل أمام بلدة (ديروط) في أعلى الصعيد، وكان يسكنها إبراهيم أفندي فهمي أحد المهندسين المشرفين على قناطر ديروط وزوجته الست هانم.

ففي يوم منها أو قريب منها، ولِد لهذه الأسرة في هذه السفينة مولود سموه (محمد حافظ) وهو شاعرنا فيما بعد، فكان ذلك إرهاصاً لطيفاً، وإيماءً طريفاً؛ إذ شاء الله ألَّا يولد (شاعر النيل) إلا على صفحة النيل.

كان أبوه (إبراهيم فهمي) مصريّاً صميماً، وكانت أمه (هانم بنت أحمد البورصة لي) من أسرة تركية الأصل، تسكن (المغربلين) تُعرف بأسرة الصروان؛ إذ كان والدها أمين الصرة في الحج، فلُقب بالصروان (القَيم على الصرة) ولُقبت الأسرة به.

ومع أن الدم التركي كان يجري في عروقه كالدم المصري، لم يترنم بمدح الترك ترنمه بمدح مصر والعرب، ولم يُشِدْ بذكر الأتراك إشادة (شوقي) بهم؛ لأن ما كان في (شوقي) دم تركي (أرستقراطي)، وما في حافظ دم تركي ديمقراطي؛ ولأن تركية شوقي غذتها بيئة القصور التي ولِد ببابها، وعاش في أكنافها، وتنفس في جوّها، وتركية حافظ غلبتها حياته البائسة، وعيشه في أوساط الجماهير، واندماجه في غمار الناس، يعيش عيشتهم، ويحيا حياتهم، فماتت عصبيته التركية إلا نادراً؛ فكان شوقي إذا شعر في الترك وحروبهم والخلافة وشؤونها شعرت أنه يتحدّث عن قومه، يفخر بنصرهم، ويعتز بعزّهم، ويراعي العلاقة القوية بين عابدين ويلدز، وبين الخديو والخليفة، وإذا شعر حافظ في ذلك لم تر عصبية جنسية، إنما هي عصبية دينية ووطنية، فهو يفخر بنصرة الترك؛ لأنها نصرة للإسلام، ويخشى على الخلافة؛ لأن في ضعفها ضعفاً لدينه، وفي النيْل منها نيلاً من وطنه.

* * *

لم يعش أبو حافظ طويلاً بعد ولادته، ولم يُرزق ولداً غيره؛ وقد توفي إبراهيم في ديروط وحافظ في الرابعة من عمره، فانتقلت به والدته إلى القاهرة، ونزلت عند أخيها، فتولى أمره، وقام بتربيته.

أدخله خاله مدرسة تُسمى (المدرسة الخيرية) كان مقرُّها (القلعة)، وكانت مكتباً تُعَلَّم فيه القراءة والكتابة وشيء من العربية وشيء من الحساب.

ثم دخل مدرسة القِرَبية، وهي مدرسة ابتدائية يُعلَّم فيها ما يُعلَّم في المكتب على نمط أرقى.

ثم تحوَّل إلى مدرسة المبتديان، ثم صار إلى المدرسة الخديوية، ولكن لم يطل مقامه فيها، فانتقل مع خاله (محمد أفندي نيازي) إلى طنطا، وكان خاله هذا مهندسَ تنظيم بها.

وقد تعرَّف به هناك الأستاذ الشيخ عبدالوهاب النجار، وكان هذا طالباً بالمعهد الأحمدي، وذلك في شعبان سنة 1305هـ - أبريل سنة 1888م، وسِنّ حافظ إذ ذاك نحو ستة عشر عاماً. قال الأستاذ النجار: (عندما عدت من القرشية إلى طنطا في شعبان من تلك السنة، رأيت إخواني وأصدقائي يلوذون بفتى غضِّ الإهاب، جديد الشباب، وقد أسرعوا بتقديمي إليه وتقديمه إليّ، باسم الأديب الشاعر (محمد حافظ إبراهيم) ولم تمرّ إلا عشيّة أو ضحاها حتى أحسست من نفسي ميلاً إليه بجاذب من الأدب الذي كان نهمة نفسي، حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه، وما يشتمل عليه من ظُرف ولطف محاضرة، وبديهة مطاوعة، وسرعة خاطر، وحضور نادرة).

(وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلي المغرب والعشاء والتراويح معاً، ثم نلبث في سمر ممتع، ومطارحة للشعر، ومذاكرة في نوادر الأدب، وما كان يطرفني به مما يقف عليه من جيد القريض، إلى أن يأتي وقت السحور، ثم نعود بعد السحور إلى ما كنَّا فيه إلى انبثاق الفجر، فنؤدّيه، ثم نخرج بغلس إلى

خارج المدينة، ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع فيذهب كل منَّا إلى بيته)[1].

فهو في سنِّ السادسة عشرة يربي نفسه بالمطالعات، ويحفظ جيد الشعر، ويسمر به مع أصدقائه، ويقلده فيما يقوله هو من الشعر، لا عمل له ولا مدرسة إلا مدرسته التي أنشأها بنفسه لنفسه، وكان فيها وحده المعلم والمتعلم.

وحدثت حادثة طريفة تدل على شدَّة شعوره بجمال الطبيعة، وحسن ذوقه وجودة حسّه؛ فقد رأى طائراً جميلاً هو (اللَّقْلَق) أو كما يُسمى في مصر (البَشَرُوش) في حديقة مدرسة الفرير بطنطا، فكان يفزعه بتحريك حلقة باب المدرسة ليرى جمال شكله وجمال حركته، واستمرَّ على هذا حتى ضجَّ رجال المدرسة، وأكمنوا له وقبضوا عليه، وأسلموه للضبطية، ثم عفوا عنه لما رأوا من سذاجته وطهارة الباعث على عمله[2].

طبيعي أن يملَّ خاله هذه الحال التي عليها ابن أخته، ولو كان أبوه حيّاً لملَّها منه، فشاب ليس في مدرسة، وليس له ثروة، ثم لا يتكسب، حالة توجب الملل؛ أشعره خاله بذلك، أو شعر هو به، فنظم له بيتين يدلان على ما في نفسه من ألم عميق، فهو يقول:

ثَقُلَتْ عَلَيْكَ مؤُونَتي ... إنِّي أَراها واهِيَهْ
فَافْرَحْ فإنِّي ذاهِبٌ ... مُتَوَجِّهٌ في داهِيَهْ

شعر ساذج في سِنّ الصبا، ولكنه يكنُّ عاطفة قوية حزينة. موقف أليم في بيت خاله يذكّره دائماً بيتمه وعدمه، ويصوِّر له دائماً بؤسه وشقاءه؛ وهذا يفسر لنا ما كان في نفس حافظ من حزن عميق، وألم كامن، على الرغم مما يلوح على سطحها من ضحكٍ وسرور.يذكر لنا الأستاذ النجار أنه في هذه الحالة، كان كثيراً ما يشكو الدهر ويندب سوء حظه، ويتبرم بأحداث الزمن، ويتمنى لو يوافيه حِمامه؛ فمن ذلك قوله:

(1) مقال للأستاذ النجار نُشر في مجلة أبولّو: يوليه سنة 1933م.
(2) مقال الأستاذ النجار نُشر في مجلة أبولّو: يوليه سنة 1933م.

**عَجِبْتُ لعُمْري كيف مُدَّ فَطالَا		وما أثَّـرَتْ فيـه الـهُـمُـومُ زَوالَا**
**ولِلمَوْتَ، ما لي قد أراه مُباعداً		وجُـلُّ مُـرادي أنْ أُوَسَّـدَ حـالَا**
**فَلَلموتُ خيرٌ مِنْ حياةٍ أُرَى بِها		ذَلـيـلاً وكـنـتُ السَّـيِّـدَ المفْضـالَا**

مـاذا يصنـع وقد ضاقت به السـبل، وعضَّه الفقر، لقد أبـى أن يأكل من بيت خاله، فمن أين يأكل؟

كانـت أمامه إحدى سـبيلين: سـلكهما قبله من كان على شـاكلته ممن تعلموا علماً لم يتبع نظاماً، ولم يسـتند إلى (شـهادة)، وهي أن يكون معلماً في مكتب أو شـبهه، كمـا فعـل قبلـه (عبـدالله نـديم) وكثير غـيره، أو يكـون محامياً، كلاهمـا إذ ذاك كـان مهنـة حـرة يدخلها مـن شـاء بلا قيـد ولا شـرط.

ولعل حافظاً رأى أنه طلق اللسـان، حسـن التأتي إلى ما يريد، مداور محاور، وأن المحامـاة تـدرُّ علـى صاحبهـا إذا نجح ما لا يـدرُّ عليه التعليـم إذا نجح، ففضَّل أن يكون محامياً.

ولكنـه لا يسـتطيع أن يفتح مكتباً، وينتظر شـهرته، فذهـب إلى أحد المحامين الشـيخ محمـد الشـيمي المحامـي بطنطـا (بـك فيما بعـد) واشـتغل عنده في مكتبـه، وكان يسـافر إلى المحاكـم الجزئيـة القريبـة من طنطـا، ويترافع في القضايا ويكسبها، ثم اختلف معه وتركه، وترك له بيتين، وهما:

**جـرابُ حظِّي قد أفرغتُـه طمعاً		بباب أستاذنا الشِّيمي ولا عجبا**
**فعـادَ لي وهـو مملـوءٌ فقلتُ له		مِمَّا؟ فقال: مِن الحَسْرات واَحَربَا**

ثم انتقل بعد ذلك إلى مكتب محمد أبي شادي بك بطنطا، فمكث عنده مدّة كان فيهـا مغتبطـاً كل الاغتباط، وكان أبو شـادي بك يرى نفسـه قد عثر على كنزٍ ثمين، فكانا يتنادران بالأدب، ويتطارحان الشعر.

ثـم خـرج من مكتبه إلى مكتـب عبدالكريم فهيم أفنـدي المحامي، فمكث فيه مدّة من الزمن يشتغل عنده[1].

(1) المصدر نفسه.

* * *

لم تطمئن نفس حافظ إلى المحاماة، ولم ينجح فيها؛ ويرجع ذلك - في نظري - إلى أمور: فالمحاماة تتطلب عكوفاً على درس القضايا وكتابة وقائعها، ووضع مذكراتها، وليس (حافظ) بالصبور على ذلك، فهو يجيد الكلام ويجيد الدفاع بالخطرات تخطر له، ولكنه لا يجيد البحث والكتابة؛ ثم كان فتى غرّاً، فهو في السادسة عشرة، أو السابعة عشرة لم تحنكه التجارب، ولم تعلمه الأيام، إنما كان همّه أن يستعرض ديوان شعر يقع منه على ما يرضي ذوقه، فيرتسم في حافظته؛ أما العناية بكتب الفقه والقانون ومراجعتها، واستخراج الحكم منها، فعملٌ لم يألفه حافظ، ولم يدرسه، ولم يتذوَّقه، ثم هو ملول لا يشتغل في مكتب واحد حتى يملَّه وهي خصلة لا تُنجِح، كالتاجر يفتح كل يوم دكّاناً في مكان ثم يغلقها ليفتح في مكان آخر. وأخيراً، هو متلاف، ينفق كل ما تصل إليه يده، فلا يستطيع أن يقتصد ما يمكنه من فتح مكتب يعتمد فيه على نفسه.

فشل في المحاماة ففكر فيما يعمل، فهداه تفكيره إلى أن يسافر من طنطا إلى القاهرة، ويدخل المدرسة الحربية.

يبدو هذا التفكير غريباً، فأديب ناشئ، ومحام فاشل، يفكر في أن يكون ضابطاً! لسنا ندري الباعث على هذا التفكير، قد يكون الباعث عليه قراءة سيرة البارودي الحربي الشاعر، وقد يكون ما رأى في نفسه من بسطة في الجسم، وقد تكون المصادفة البحتة هيأت له ذلك.

وأيّاً ما كان، فقد دخل المدرسة الحربية، واغتبط بدخولها، ومنّى نفسه بمنصب حكومي يُضمَن له فيه الرزق، ثم يقول الشعر بعد ذلك، يغنّي به لنفسه ولإخوانه، وظل في المدرسة إلى أن تخرّج سنة 1309هـ - 1891م، فيكون عند تخرّجه في سنّ العشرين تقريباً.

وكانت المدرسة الحربية قد نُظمت في عهد الخديو توفيق باشا عقب الثورة العرابية، وأُدخل عليها تعديلات جديدة، وعُيِّن لها (البكباشي) هوليوت (Huleatt) الإنجليزي (قومندانا)، وكان ناظرها اللواء لارمي باشا الفرنسي. وزادوا عدد تلاميذها إلى بضع وتسعين، وكان ذلك سنة 1887م؛ وجُعلت الدراسة فيها نوعان: دروساً مشتركة لجميع التلاميذ، ودروساً خاصَّة للأقسام؛ فالمشتركة هي القوانين، والتعليمات العسكرية، والجغرافيا، واللغة الأجنبية، والطبيعة، والكيمياء، والرسم؛ والخاصة هي: الطبوغرافيا، والاستحكامات، والتمرينات في الطوبجية والسواري (الجنباز والشيش). وعُيِّن المستر براين الإنجليزي أيضاً في وظيفة معلم أوّل بالمدرسة سنة 1889م، وأصدر السردار أمراً ببيان اختصاص القومندان والمعلم الأوَّل، فكان اختصاص القومندان النظر في كل شيء يتعلق بإدارة المدرسة، واختصاص المعلم الأوّل النظر في البرامج؛ وبذلك سُلب من الناظر الفرنسي كل شيء[1].

هذا هو عهد المدرسة أيام كان فيها حافظ، بدأت تتدخل فيها السلطات وتحدّد برامجها، وتحدّ من تعليمها. وكانت الثقافة فيها سطحية ضعيفة لم يستفد منها حافظ كثيراً من ناحية معارفه العامة، فما كان عنده من ذلك فهو ما استفاده من مطالعاته الشخصية.

عُيِّن في الحربية بعد تخرجه وظلَّ بها نحو ثلاث سنوات، ثم نُقل إلى الداخلية ولاحظ بوليس في بني سويف، ثم الإبراهيمية؛ لأن مدرسة البوليس لم تكن أُنشئت بعد، فكان يؤخذ للبوليس من الحربية، ثم أُعيد للحربية، وسافر منها إلى السودان في الحملة الأخيرة التي كانت بقيادة اللورد كتشنر، وكانت منطقة عمله في السودان الشرقي.

(1) انظر: الجزء الثاني من حقائق الأخبار، لإسماعيل سرهنك باشا.

تبرم حافظ من عمله بالسودان، وأكثر من الشكوى إلى أصدقائه، وعاوده داء الملل القديم، ولم يطق جوَّ السودان، ولا جفاء العيشة في السودان، فتحسر على أصدقائه في مصر، وليالي الأنس بها، وجوِّها البديع، وعيشها الناعم، كما يدل على ذلك شعره في هذه الفترة.

قال في ذلك يصف حاله:

وما أعذرتُ حتّى كان نعلي ... دماً ووسادتي وجهَ التراب
وحتى صيّرتَني الشمسُ عبداً ... صَبيغاً بعد ما دَبَغَتْ إهابي
وحتى قلَّم الإملاقُ ظُفري ... وحتى حَطَّم المِقدار نابي
متى أنا بالغٌ يا مصرُ أرضاً ... أشم بتربِها رِيحَ الملاب

وزاد حاله سوءاً في السودان كراهية كتشنر له؛ إذ كان حافظ غير معنيٍّ بنظام، ولا مراعياً حسن هندام، وعبر عن ذلك بما كتب به إلى الأستاذ الإمام (محمد عبده) من السودان؛ إذ يقول: (وقعدت همَّة النجمين، وقصرت يد الجديدين، عن إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد؛ فلقد نما ضِب ضغنه عليَّ، وبَدَرَتْ بوادر السوء منه إليَّ، فأصبحت كما سر العدوَّ، وساء الحميم) إلخ.

وكان رئيس فرقته رفعت بك يكرهه، ويرفع التقارير السيئة عنه؛ إذ كان حافظ يعمل الأراجيز في ذمِّه يحدو بها هو وأصحابه، فمنها قوله فيه:

تراه إذ ينفخ في المِزمار ... تحسبه في رتبة السردار
يجتنب العاقلَ والنبيها ... ويعشَق الجاهل والسفيها

وأفادته أيام عمله في المحاماة فاستغلها في السودان؛ فقد عُرف بين إخوانه بقوّة الحجة، وحسن البيان، فكان كثيراً ما ينيبه الضباط المتهمون في الدفاع عنهم أمام المجالس العسكرية.

حتى إذا جاءت سنة 1899م حدثت ثورة في السودان، اتهم فيها ثمانية عشر ضابطاً، كان من بينهم حافظ، فحوكِموا وأُحيلوا إلى الاستيداع.

وقد قال اللورد كرومر في كتابه (عباس الثاني) عن هذا الحادث ما يأتي:

(عندما شبَّت حرب جنوبي أفريقيا، عاد كثير - من أفضل الضباط البريطانيين، الذين كانوا يقودون فرق الجيش السوداني - إلى فرقهم الأصلية في الجيش البريطاني، ونظراً لبعض الملابسات التي لا حاجة بي إلى ذكرها - والتي ما كانت تقع لو لم يضطر هؤلاء الضباط الخبيرون إلى السفر - حدث استياء في الجيش، وجاهرت فرقة من فرق الجيش السوداني بالعصيان، وقد كثرت الإشاعة بأن الخديو قد قال أقوالاً تجعل الثائرين يعتقدون أنه راضٍ عنهم عاطف عليهم. على أن الثورة أُخمدت بدون إراقة دماء، وحُوكِم عدد من الزعماء أمام المجالس العسكرية، وحُكم عليهم بالسجن مُدداً مختلفة، وأُرسلوا إلى مصر ليقضوها بها.

ولما حادثت الخديو في هذه المسألة، رأيت من الحكمة أن أتجاهل ما كان يقال عن اشتراكه في الثورة؛ لأن ذلك لا سبيل إلى إثباته، واقتصرت في حديثي على وصف الحادثة والخيانة العظمى التي ارتكبها بعض جنده نحو سموِّه، واقترحت عليه أن يرى المحكوم عليهم، ويخاطبهم بكلمات اخترتها وعربتها له، فوجد الخديو نفسه في مأزق حرج، وموقف لا يدري كيف يخرج منه؛ لأنه إذا رفض يعرِّض نفسه للشبهة في أنه حرَّض على الثورة في جيشه، كما فعل جدّه من قبله، وإذا قبل يتضح للثائرين أن لا أمل لهم بمساعدته، وبذلك يفقد كثيراً من احترامه ونفوذه في الجيش، على أنه - كما كنت أتوقع - اختار الأمر الأخير)[1].

(1) كتاب اللورد كرومر (عباس الثاني).

أثَّر هذا الحادث كثيراً في نفس حافظ وملأه يأساً وخالط نفسه شيء ليس بقليل من الخوف، فلم يقل في ذلك شعراً، أو قاله وكتمه، وزاد في خوفه ويأسه، ما صار إليه أمر الثورة، وأمر الأمير.

وخير ما يمثله في هذا الموقف قوله:

إذا نطقتُ فَقاعُ السجنِ متكأٌ وإن سكَتُّ فإنّ النفسَ لَم تطِبِ

ثم التمس إحالته إلى المعاش؛ فأُجيب إلى طلبه، وكان قد أخذ يبحث عن عمل يعمله، فعرض نفسه على جريدة الأهرام ليتولى عملاً فيها، ويظهر أن ذلك كان بإيعاز الخديو؛ لأنه شعر بتبعته نحو هؤلاء الضباط، وأنه هو السبب فيما آلت إليه حالهم، وأنه لا يستطيع توظيفهم في الحكومة، فأخذ يسهل لهم الأعمال الحرّة، يدل على ذلك أن الذي قدّم حافظاً لصاحب الأهرام هو شوقي بك، وصلته بالقصر معروفة، ولكن ذلك لم يتم، ولسنا ندري السبب في ذلك.

فظلَّ بلا عمل يغشى مجلس الأستاذ الإمام (محمد عبده)، وكان قد اتصل به أيام كان في السودان، فلما عاد زاد اتصاله به، وعطف عليه الأستاذ، وأنهله من علمه وفضله، كما غشي مجالس الأدباء والعظماء، يسمع منهم، ويغني لهم بشعره وأدبه، حتى كانت سنة 1911م فساعده أحمد حشمت باشا ناظر المعارف وعيَّنه رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، وظلَّ بها إلى فبراير سنة 1932م؛ إذ أُحيل إلى المعاش بعد أن ظلّ بها نحواً من عشرين سنة.

كما أعانه حشمت باشا؛ إذ طلب له رتبة البكوية من الدرجة الثانية، فأُنعم عليه بها سنة 1912م، ثم أُنعم عليه بنشان النيل من الدرجة الرابعة.

في سنة 1906م بعد أن عاد حافظ من السودان، تزوَّج من أسرة بحي عابدين، ولكن لم يدم زواجه أكثر من أربعة أشهر، فافترق الزوجان، ولم يعقب منها، ثم لم يعد بعد ذلك إلى الزواج.

وتوفيت والدته حول سنة 1908م فظل يعيش مدة في بيت خاله، وبعد أن توفي خاله، كان يعيش مع زوجة خاله نيازي بك الست عائشة هانم؛ فكانت تدبر بيته، وتقوم بأمره، وكانت لم تُرزق بأولاد، فكانت تتبنى بنتين، وظلت تقوم بشؤونه إلى أن توفيت قبل وفاة حافظ بنحو ثلاث سنين.

وفي بيت صغير بالزيتون من ضواحي القاهرة، توفي حافظ في الساعة الخامسة من صباح الخميس 21 يوليه سنة 1932م؛ أي بعد إحالته إلى المعاش بنحو أربعة أشهر ونصف.

دعا في ليلة وفاته صديقين من أصدقائه لتناول الطعام معه، ولكنه لم يستطع مشاركتهما لِما أحسَّ من تعب، فاقتصر على أن آنسهما بحديثه.

وبعد انصرافهما ازداد ألمه، فأسرع خادمه إلى مخاطبة صديق له ليحضر ومعه طبيب، فلما حضرا، كان حافظ في النزع الأخير، وما لبث أن فاضت روحه، رحمه الله.

أخلاقه:

انتاب حافظاً كثير من الشدائد منذ حداثته، فقد مات والده وهو صغير، ولم يورثه ثروة. وكان بائساً في بيت خاله، ولم ينجح في المحاماة؛ وأُصيب في منصبه فأحيل إلى الاستيداع، ثم إلى المعاش في مقتبل عمره، وكانت له إلى هذا نفسٌ شاعرةٌ، وحسٌّ مرهفٌ، فأثَّر كل ذلك في نفسه أثراً بليغاً، فهو ناقم على الدهر، ناقم على قومه، يكثر من شكوى الزمان وشكوى الناس.

ولكن أبت (إرادة الله) إلَّا أن تجد لثوران نفسه منفذاً، ولشقائه مسعداً، فمنحته القدرة الفائقة على الفكاهة الحلوة، والنادرة المستملحة، فضحك من البؤس، ومن الشقاء، ومن كل شيء؛ وكان له ذوق بارع في اختراع النكتة من كل ما يدور حوله، فما يسمع حديثاً، أو يُعرض أمامه شيء، حتى يدرك موضع الفكاهة منه، فيصوغ ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من

أعماق صدورهم، وقرارات قلوبهم؛ فكان في مجالسه موضع إعجابهم، ومنبع سرورهم، يرسل النكتة من بديهة حاضرة، تستخف الوقور، وتستهوي الرزين، فهو زينة المجلس، وبهجة النادي.

ومن العجيب مع هذا أنك قلَّما ترى للنوادر والنكات في شعره مجالاً، فمن قرأ شعره وحده، ولم يعرف شيئاً من صفاته، لا يشعر بأنه كان فَكِهاً مَزَّاحاً، وسبب ذلك أن الأديب في كثير من الأحيان تكون له شخصيتان أو أكثر؛ فله في حياته العامة شخصية خاصة، فإذا أراد أن يصوغ شعره أو نثره انصب في قالب خاص، وتقمص شخصية أخرى؛ ولو قد أتيح له أن يُدخل كثيراً من فكاهته في شعره، لربحنا من وراء ذلك الشيء الكثير. وسبب آخر، وهو أن الناس كانوا ينظرون إلى هذه النوادر، كأنها من الأدب الشعبي الذي لا يصح أن يرتقي إلى الأدب الأرستقراطي، ولذلك قلَّ أن يدخلوا حتى الآن فكاهتهم ونوادرهم في الأدب، كما احتقروا القصة، واحتقروا ألف ليلة وليلة، وقصة عنترة ونحوها، ولم يعرها الأدباء الراقون اهتماماً إلا في الأيام الأخيرة؛ فكان حافظ إذا قال شعراً في فكاهة أو مزح، عدَّه من سقط متاعه، ولم ينظر إليه عندما يتخير شعره للنشر أو التدوين.

* * *

ثم قد تعوَّد في حياته ألَّا يقيم للمال وزناً، فهو كريم، واسع العطاء، ذاق طعم البؤس، فعرف موقعه من الناس، فسخت كفه، ونديت راحته، حتى لو ملك الدنيا كلها لفرّقها في يوم واحد؛ قد يعرض له الفقير البائس فيسمح له بما في يده وهو أحوج ما يكون إليه لسدّ رمقه وتفريج همه.

وكما كان كريماً على الناس فهو كريم على نفسه، يمتعها بما تشتهي ما وجد إلى ذلك سبيلاً، يأكل خير ما يؤكل، وقد عرف إخوانه بيته بذلك، ويدخن خير (سيجار) وأغلاه، ويستمتع بكل ما تصبو إليه نفسه، فإذا فرغ جيبه عرف كيف يصبر؛ له يد صناع في الكسب، خرقاء في الإنفاق؛ خير أيامه

وهو (موظف) بضعة أيام في أوَّل الشهر، ثم لا شيء، فإذا لم يكن (موظفاً) فخير أيامه ما استفاد فيها مالاً فحسب، لو كان تاجراً لأضاع رأس ماله في أوَّل شهره ثم أعلن إفلاسه، ولو وضع ميزانية دولة لجعل الإنفاق كله في أيامها الأولى ثم لا إنفاق. ومن طريف ملاحظاته في ذلك أنه كان يقترح على الحكومة أن تعطي موظفها أكبر مرتب أوَّل استخدامه، ثم تنقصه شيئاً فشيئاً كلما تقدَّمت به السنُّ، لا أن تعطيه مرتباً يزيد مع القدم؛ وكان يعلل ذلك بأنه يبدأ وظيفته وهو يبدأ شبابه، وهذا هو زمن الإنفاق، فإذا هرم ثم شاخ فيكفيه القليل، وحسبه من غنى شبع وريٌّ.

ومع هذا لم يكن سخيّاً بمنصبه سخاءه بماله، فهو حريص على بقائه في عمله بدار الكتب أشدّ الحرص، ضنين به أشدّ الضنّ؛ فهو لا يقول شعراً يغضب به أحداً من ذوي السلطان خشية أن يزحزحوه عن منصبه، أو ينالوه بأذى فيه؛ وإن قال شعراً سياسيّاً أخفاه ولم ينسبه إلى نفسه، فقد قال قصيدته في مظاهرة السيدات سنة 1919م، ولكنها نُشرت في منشور من غير اسمه، ولم تُنشر في الصحف إلا سنة 1929م حين أمن عاقبة نشرها؛ وكذلك قصيدته التي قالها حين خيف على الأستانة من احتلال الأجانب، لم تُنشر إلا سنة 1932م، وهكذا؛ وما قاله من الشعر السياسي في ذلك العصر - صراحةً - هادئ لين، أو في ظروف تحميه؛ بل قد قال في ذلك العهد أحياناً ما يخالف منهجه، ولا يجري مع ما عُرف من حماسته، كقوله للمغفور له السلطان حسين يطلب إليه أن يوالي الإنجليز ويمادهم حبال الود:

ووالِ القوم إنهمُ كرامٌ ... مَيامينُ النَّقيبة أين حَلُّوا
وليس كقومهم في الغرب قومٌ ... من الأخلاق قد نَهَلُوا وعَلُّوا
وإن شاورتَهمْ والأمر جِدٌّ ... ظفرتَ لهم برأي لا يَزِلُّ
فَمادِدْهُمْ حِبالَ الوُدِّ وانهض ... بنا فقيادُنا للخير سَهْلُ

* * *

ومن ثم كانت هذه الفترة في حياته. وما أطولها. فترة نضوب في شعره، وجمود في قريحته إلا نادراً؛ فكان منصبه نعمة عليه، ونقمة على فنّه، ومنفعة له، ومضرة على الناس. ولعل أيام بؤسه الأولى روّعته وأفزعته حتى قامت شبحاً دائماً أمام عينه تنذره بالويل والثبور، وعظائم الأمور، إن هو أُصيب في منصبه أو مُسّ في مرتبه.

ولعل ذلك الخوف لازمه بعد خروجه من وظيفته بإحالته إلى المعاش؛ إذ أَلِف حب الأمن واعتاده، وعقد عليه، حتى لقد أنشدني قبيل وفاته قصيدته التي مطلعها:

قد مرَّ عامٌ يا سعادُ وعامُ وابن الكنانة في حِماهُ يضام

وكانت نحو مئتي بيت، يصف فيها وزارة إسماعيل صدقي باشا، فأشرت عليه أن ينشر بعضها، أو يكتبها، أو يمليها، أو يحتفظ بها بأي شكل من الأشكال، فقال: (إني أخاف السجن، ولست أحتمله).

* * *

ثم هو واسع الصدر في نقدك شعره، إذا كنت وهو على انفراد، فإذا نشرت نقدك في صحيفة أو على ملأ من الناس، فهو غضوب أشدَّ الغضب، ناقم أشدَّ النقمة، حريص على منزلته في فنِّه أكثر من حرصه على شخصه، حتى لأَحبّ إليه أن تهجوه من أن تهجو شعره.

* * *

وثقافته الرسمية - إن جاز هذا التعبير - ثقافة محدودة، فهي لا تعدو دراسته في مكتب أو مدرسة ابتدائية، ثم دراسة فنية وما تستلزمها في المدرسة الحربية.

ولكنه أكمل ثقافته، ووسع معارفه من نواح متعدّدة، فقد أكثر من قراءة كتب الأدب، وأطال النظر خاصة في كتاب الأَغاني؛ فقد حدث أنه قرأه مرات.

وتحدث هو عن نفسه أنه كان يطيل النظر في دواوين الشعراء، ويتخير من شعرهم ويحفظ ما يتخير من أمثال شعر بشار بن برد، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، وأبي تمام، والبحتري، والشريف الرضي، وابن هانئ الأندلسي، وابن المعتز، والعباس بن الأحنف، وأبي العلاء المعرِّي. يدل على ذلك ما كان يحفظ من متنخّل الأدب وعيون الشعر، فإذا جلست إليه أخذ يسمعك من محفوظه ما يبهرك، حتى لقد خيل إليّ أنه لو دوّن ما يحفظه لفاق أبا تمام في اختياره (ديوان الحماسة)؛ إذ كان حافظ يتخير بذوق العصر، وروح العصر، وكان له حافظة قوية تسعف ذوقه، وتلبي اختياره، فما يختار جيداً من القول حتى يرتسم في حافظته، ويبقى في ذاكرته، ثم يتجلى ذلك في شعره - لكنه - مع ذلك لم يعكف على دراسة منظمة، ولم يقرأ قراءة مستفيضة في عمق، ولم يرسم له خطة يلتزمها في الدراسة؛ بل كان كالنحلة تنتقل من زهرة إلى زهرة، وترتشف من هذه رشفة، ومن تلك رشفة، فهو يرضي ذوقه في أوقات فراغه بالمطالعة المتنقلة؛ فإذا عثر على أسلوب رشيق أو معنى دقيق اختزنه في نفسه.

وقد عاقه عن المطالعة الراتبة المنظمة، أنه كان ملول الطبع، كما يدل عليه تاريخ حياته؛ عمل في المحاماة فلم تعجبه، واشتغل في البوليس فملَّه، وفي الجيش فسئمه، ولولا أنه كان حرّاً طليقاً - إلى حدّ كبير - في دار الكتب لملّها أيضاً. ثم كانت هذه الفوضى في قراءته يتبعها إهمال في حياته الأدبية، فقلَّما يكتب قصيدته وقلَّما يحافظ على شعره؛ بل لا نبالغ إذا قلنا إنه قلما كان يُعنى أن يكون في بيته دواة وقلم، أو مكتبة منظمة. كان لديه كتب تُبعثر، فيأتي زائر ويأخذ جزءاً من الأغاني، وجزءاً من غيره، حتى إنه لما مات - رحمه الله - لم يكن في بيته من الكتب غير جزء من تذكرة داود؛ وجزء من تفسير الأحلام لابن سيرين. فأما الأوّل فلأنه كان في سنيه الأخيرة دائم الشكوى من المرض، كثير توهم العلل؛ فكان كلما سمع بوصف مرض

تخيل أنه مصاب به، ولعله اقتنى تذكرة داود ليرجع إليها فيما يتخيل من أدواء؛ وأما (تفسير الأحلام) فلأنه كان يعتقد في الرؤى وأثرها في حياة الإنسان؛ وكان يرجع إليه في التنادر على بعض الأصدقاء، فقد حُدّثنا أنه كان في ضيافة سعد زغلول باشا - رحمه الله - ، في مسجد وصيف، وكان حافظ وصحبه يتنادرون على صديق من الأضياف، كان يعتقد في الأحلام وصحتها؛ ويتفاءل بها في آماله في منصب كبير، أو مطلب خطير.

وشيء آخر يُعدُّ مصدراً كبيراً من مصادر ثقافته، وهو كثرة غشيانه لمجالس العلماء وقادة الرأي في الأمة، فقد اتصل بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وعدَّ نفسه فتاه، وكان يحضر بعض دروسه التي يلقيها على نخبة من الفضلاء في منزله بعين شمس، ويجلس في مجالسه، وقد يصحبه في أسفاره؛ ثم يغشى مجالس أمثال: سعد زغلول، وقاسم أمين، ومصطفى كامل، ونحوهم؛ وكانت مجالسهم مدارس من أرقى المدارس، تُطرح فيها المسائل العلمية، والمعضلات السياسية، والمشكلات الاجتماعية، وتُعرض فيها الحلول المختلفة، وتُبسط فيها أدواء الأمم، وكيف عولجت وما إلى ذلك. وحسبك بمدارس كان المعلِّم فيها أمثال: محمد عبده، وسعد زغلول، ومصطفى كامل، ولعل هذا كان أكبر منبع استقى منه حافظ أفكاره التي صاغها في شعره.

ثم كان له مجلس من الأدباء في المقاهي والمنتديات أمثال: خليل مطران، والبشري، وإمام العبد؛ وكانت مجالس تجتمع فيها الفكاهة الحلوة، والنادرة الطريفة، ويستعرض فيها الأدب وطرائفه، فكان منهم مفيداً مستفيداً عارضاً سامعاً.

وقد كان حافظ يلمُّ بالفرنسية، فمكنته من الاطلاع على شيء من آدابها، وقد ترجم البؤساء لفيكتور هوجو، وترجم بعض قطع لجان جاك روسو، واشترك مع الأستاذ خليل مطران في ترجمة كتاب (موجز الاقتصاد)، وكان يقرأ بعض ما يترجم من الأدب الإنجليزي، كما ترى أثر ذلك في ترجمته

لبعض قطع شكسبير، ولكنه على كل حال، لم ينل حظّاً وافراً من الأدب الغربي، ولم يكن أثر ذلك كبيراً في شعره، إنما شعره - على الأكثر - نتاج الأدب العربي، والثقافة العربية، والتجارب الشخصية.

وأخيراً. وإن شئت أولاً. كان من مصدر ثقافته، تجاربه الواسعة، فقد أتاح له بؤسه الامتزاج بغمار الناس ومجالستهم ومشاركتهم في الخير والشر، ومطارحتهم النكات والنوادر، كما مكّن له ظُرفه وأدبه أن يتصل بسادة الناس وقادتهم يسمع لحديثهم، ويسمعون لأدبه، وأن يتصل برجال النهضة الوطنية فيأخذ عنهم، ويلتهب حماسة من حماستهم، ويمتلئ وطنية من وطنيتهم.

شعْـره:

مُنح حافظ عاطفة قوية، ونفساً فنية سمت به عن أقرانه من نابتة العصر، ومن طلبة المدرسة الحربية التي كان بها، وإلا فما الذي جعله وسط صليل السيوف، والتدريب العسكري، وترويض الخيل، يتجه نحو الشعر يطالعه ويتذوقه، ويتخيره ويحفظه، ثم يحاول أن يقلده، وينظم على غراره؛ وكان له أسوة حسنة في محمود سامي البارودي باشا، فقد تخرَّج في المدرسة الحربية، وتعلَّم فنونها، وترقى في رتب الجيش، وخاض معامع القتال، وكان ربَّ القلم، كما كان رب السيف، وكان مؤسس النهضة الحديثة في الشعر، أعاد إليه بهجته الأولى ونضارته وقوّته. فاتخذه حافظ مثله الأعلى يحذو حذوه، ويختطُّ نهجه، ويأمل أن يبلغ في الحياة مبلغه، فيكون ذا الرئاستين، وحامل اللواءين، وقد عبَّر عن تقديره للبارودي وإعجابه به في قصيدة من قصائده يمدحه بها؛ إذ يقول فيه:

أمير القوافي إن لي مستهامة	بمدح ومن لي فيه أن أبلغ المدَى
أعرني لَمدحيكَ اليراعَ الذي به	تخطُّ وأقرضني القريض المسدّدَا
ومر كلَّ معنى فارسيٍّ بطاعتي	وكلَّ نَفُوْرٍ منه أن يتودّدَا

وهبني من أنوار علمك لمعة على ضوئها أسري وأقفو من اهتدَى
وأربو على ذاك الفخور بقوله إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدَا

ومدحه في هذه القصيدة بالإجادة في الحماسة والنسيب واللعب بالسيف والتفنن في التشبيب، فكأنه في مدحه البارودي يرسم لنفسه مثله، ويحدّد مستقبله، وقد قلَّد البارودي أيضاً في ناحيتيه الأدبيتين، فقد عُني البارودي بالتخير من شعر الفحول، فاختار لثلاثين شاعراً من الشعراء المولدين، ثم أنشأ شعره، وجوَّد نظمه، وكذلك فعل حافظ، فقد تخير وشعر، وحفظ ونظم، ولكن قعد بحافظ عن جمع مختاره ما عهد فيه من إهمال، ولولا نعمة الصحف والمجلات تنشر له بعض ما نظم لكان مصير شعره مصير مختاره.

ولكن شاء الله لحافظ أن يقارب شأو البارودي في دولة القلم لا في دولة السيف، فانتهى - على عجل - تاريخ حافظ الحربي بإحالته في شبابه إلى المعاش، واستمر - طول حياته - تاريخُه الأدبي، فلم يتحقق إلا شَطر رجاءَيْه، ولم يدرك من البارودي إلا إحدى دولتيه.

وكان حريّاً بحافظ أن يدرك أن ما ناله البارودي في عهد الاستقلال، لا يمكن أن يناله حافظ في عهد الاحتلال؛ إذ كيف يرضى الاحتلال أن يبلغ أحدٌ مبلغ العظمة في الحروب؛ ومبلغ العظمة في الآداب، والاحتلال هو هو الذي حطم سيف البارودي، بل حطَّم قلمه القوي، وقدَّم له قلماً آخر يشكو به الدهر، ويبكي على زمانه الغابر؛ ولكن أنَّى لشباب حافظ أن يدرك هذه الحقائق المرة، والشباب يهزأ بكل قوَّة.

على أنه يخيَّل لي أن حافظاً لم يخلق رجلَ قتال؛ نعم كان منظره رجل حرب، فهو مستحكم الخلقة، وثيق التركيب، مفتول الساعدين، عريض المنكبين؛ ولكن لا أظن أن قلبه يشاكل جسمه، لقد ظلَّ وهو في السودان يشكو في شِعره حَرَّهُ، ويشكو حرمانه من لذائذ القاهرة وترفها ونعيمها:

فمن لي أن أرى تلك المغاني وما فيها من الحسن المقيم
وها أنا بين أنياب المنايا وتحتَ براثن الخطب الجسيم
أتيتك والخطوبُ تزفُّ رحلي ولي حالٌ أرَقُّ منَ السَّديم

وهكذا ظل في السودان يبكي ويتوجع ويتشوَّق، ويستغيث بالأستاذ الإمام (محمد عبده) المرة بعد المرة أن يردّه إلى مصر (ردّ الشمس قطرة المزن إلى أصلها، وردّ الوفيّ الأمانات إلى أهلها). وليست هذه بالنفس الحربية؛ ثم لما ثار الضباط في السودان وهو منهم، وطردوا وعادوا إلى مصر، وأُحيلوا إلى المعاش، لم ينطق بشكوى، ولم يثر على من ظلمه، ولم يهج من نكبه؛ ولكنه سكت واستسلم، وأخذ يسعى إلى وظيفة في القصر، أو أن يكون شاعراً لخليفة أو أمير.

ولما عُيِّن في دار الكتب سكت وأمعن في السكوت، إلا ما كان يقوله في المواسم والحفلات، أو ما تدعو إليه المناسبات.

كل هذا يرينا أنه كان مغالياً في أمله - إن كان - أن يجمع في يده بين السيف والقلم.

ولكن إن أخفق حافظ في حربه فقد نجح في شعره، بدأ ينظمه في أغراض اعتاد الناس أن ينظموا فيها، من مدح للخديو والأغنياء، ومداعبة الإخوان، والشكوى إليهم، ونحو ذلك؛ وقل أن تجد في هذا النوع من الشعر معنى جديداً أو خيالاً رائعاً، وإنما هو أسلوب من سبقه ومعانيهم وأغراضهم. ومع هذا كان يرى في نفسه أنه في هذا العهد أكبر شاعر في مصر لا يفضله إلا شوقي؛ فيقول من قصيدته التي قالها سنة 1901م:

قُلْ للأُلى جعلوا للشِّعر جائزةً فيمَ الخلافُ ألمْ يرشدْكمُ اللهُ؟
إني فتحت لها صدراً تليقُ به إن لمَ تحلّوه فالرحمنُ حلاَّهُ
لم أخشَ من أحدٍ في الشعر يسبقني إلا فتى ما لهُ في السبق إلاَّهُ
ذاك الذي حكمت فينا يراعتُهُ وأكرمَ اللهُ والعباسُ مثواه

وكان في عصره من كبار الشعراء المصريين أمثال: البارودي، وإسماعيل صبري، وشوقي، ومحمد عبدالمطلب.

ولكن يحق له هذا القول؛ لأن حظ مصر في هذا العصر من الشعر، بل من الأدب عامة، كان حظّاً ضعيفاً، فلم ير حافظ له نِدّاً غير شوقي؛ لأن البارودي على إجادته وفتحه للناس باب الشعر الحي القوي بعد أن أغلق طويلاً، كان في أخريات أيامه، وقد برحت به الحوادث، ودلف إلى القبر؛ إذ أدركته وفاته سنة 1904م.

وإسماعيل صبري باشا كان أشعر من حافظ في ناحية خاصة، وهي مقطوعاته الصغيرة، يعبر بها عن معانٍ دقيقة، وعن شعور نفسي عميق. ولم يكن يحترف الشعر كما احترفه شوقي وحاول أن يحترفه حافظ. وكان منصبه الحكومي يسمو به عن ذلك.

لهذا جهر حافظ بأنه خير شاعر في مصر إذا استُثني شوقي، ولعله كان يرى في أعماق نفسه أن (شوقي) لم يفضله بشاعريته، وإنما فضله بقربه إلى القصر وأنه شاعر الأمير، ولولا ذلك لما فضله، ويشير إلى هذا المعنى من طرف خفي في هذه القصيدة نفسها؛ إذ يقول:

ذاك الذي حكمَتْ فينا يراعتُهُ وأكرمَ اللهُ والعباسُ مثواه

* * *

قامت بعد ذلك حركة في مصر من بعض الأدباء المثقفين ثقافة غربية وبعض قادة الرأي، تعيب على الشعراء هذا الشعر التقليدي في أسلوبه وفي أغراضه، وفي أوزانه وقوافيه، وتنقد شوقي وحافظاً مُر النقد؛ لأنهما قديمان في أفكارهما، مقلِّدان في أغراضهما، محافظان في أوزانهما.

كان من آثار هذه الحركة في حافظ أن ثار هو أيضاً على الشعر القديم، فقال قصيدته المشهورة في الشعر التي مطلعها:

ضِعْتُ بينَ النُّهى وبينَ الخيالِ يا حكيمَ النفوسِ يا ابنَ المعالي

عاب فيها على شعراء الشرق شعرهم في الكاس والطاس، والمدح والهجاء والرثاء، وحب سلمى وليلى، ومكان الآثار والأطلال، والرحال والجمال، ثم يقول:

آن يا شعرُ أن نفكَّ قيوداً قيَّدتنا بها دعاةُ المحالِ
فارفعوا هذه الكمائمَ عنَّا ودعونا نشمُّ ريحَ الشَّمالِ

فكانت ثورة صارخة على الشعر القديم، فهل جدَّد حافظ بعدُ في شعره؟

لم يجدِّد في بحوره وأوزانه، ولم يجدِّد في أسلوبه وبيانه، ولا تفكيره وخياله، إنما جدَّد في شيء هو فوق ذلك كله، جدَّد في موضوعه وأغراضه، فبدلاً من أن ينظم في موضوعات امرئ القيس وطرفة، أو جرير والفرزدق، أو بشار وأبي نواس، نظم في موضوعات عصره وأمانيِّ قومه.

وساعده على هذا الاتجاه تربيتُه الحربية، فإن فشل في حرب السيف فليحارب بالقلم، وإن تكسر سنُّ رمحه فليشرع سنَّ قلمه، وإن أخطأ النجاح في ثورة الضباط في السودان، فليكتب له التوفيق في إثارة الأمة على الاحتلال.

ميزة حافظ الكبرى أنه تبلورت في شعره آمال أمته أوّلاً، وآمال الشعب العربي ثانياً.

كانت الأمة تشكو من فوضى الأخلاق، وتشكو من الاحتلال، وتشكو من تضييق الغرب على الشرق، وكان زعماء الوطنية يلهبون حماسته، ويشعلون غيرته، وكان الخطباء يحاولون إيقاظه، وكان حافظ - بما له من حسٍّ مرهف، وعاطفة حسَّاسة - يُجمّع كل ذلك في نفسه، فلما ثار على الشعر القديم وحطَّمه، بنى على أنقاضه شعره الجديد في الوطنيات والاجتماعيات والسياسيات؛ وكان في شعره يقف موقف الصحافة الوطنية، والخطباء الوطنيين، وقادة الرأي الاجتماعيين؛ يغشى مجالس كل هؤلاء، ويتشرب من أرواحهم، ويستمد من وحيهم ويغذي عواطفه من عواطفهم، ثم يخرج ذلك كله شعراً قويّاً ملتهباً،

يفعل في النفوس – وذلك شأن الشعر الحي – ما لا تفعله الخطب والمقالات؛ فكان حافظ – حقّاً – شاعر الوطنية، وشاعر الشعب، وشاعر السياسة والاجتماع، ولم يجاره أحد في ذلك من شعراء عصره.

وقف حافظ في ذلك مواقف مختلفة، فتارة يقرع الأمة تقريعاً جارحاً مؤلماً على استنامتها وإخلادها إلى السكون، واستسلامها للأجانب:

أُمَّـــةٌ قـد فَـتَّ في سـاعدها بـغضُـها الأهـلَ وحُـبُّ الـغـربا
تعشق الألـقـابَ في غـيرِ العلا وتُـفَـدِّي بـالـنـفوسِ الـرُّتَـبـا
وهـي والأحــداثُ تستهدفها تعشقُ اللَّهو وتـهـوى الطَّربا
لا تُـبـالي لَـعِـبَ الـقـوم بها أم بـهـا صَـرفُ الـلـيالي لَعِبا

ويقول:

فما أنـتِ يا مصرُ دارَ الأديب ولا أنــتِ بـالـبلدِ الـطـيِّبِ

* * *

كـمـا قـال فـيـهـا أبـو الـطـيـب وكـم ذا بمصر من المضحكات
أمــور تَمُــرّ وعـيـش يُمِــرُّ ونـحـن مـن الـلَّـهـو في مـلـعـبِ
وشـعـبٌ يَـفـرُّ مـن الـصـالـحـات فـرارَ الـسَّـلـيـمِ مـنَ الأجـربِ

ويقول:

وإذا سُئلتَ عنِ الكنانةِ قل لهم هـي أُمَّـةٌ تَلهو وشعبٌ يلعبُ

ونحو ذلك كثير في ديوانه.

وتبدأ الأمة بحركة، وتقف موقفاً مشرفاً يوماً؛ فيحيي أمله، ويبشر بعد أن كان ينذر، ويعاوده الأمل بعد اليأس؛ والرجاء بعد الخيبة، فيقول مخاطباً سعداً:

فاوضْ فخلفك أمَّةٌ قد أقسمَتْ ألّا تـنـامَ وفي الـبـلادِ دخـيـلُ
عُـزلٌ ولكن في البلاءِ ضـراغمٌ لا الجيش يفزعهُا ولا الأسطولَ

ويقول:

النَّسْرُ يطمعُ أن يصيدَ بأرضِنا سـنريـه كـيـفَ يـصـيـدُه زغـلـولُ

ويقول:

أفـقـنـا بـعـدَ نـومِ فـوقَ نـومٍ عـلـى نـوم كـأصـحـابِ الـرقـيـمِ

إلى كثير من أمثال ذلك.

وهكذا يضطرب في شعره بين التفاؤل والتشاؤم، اضطراب الأمَّة بين اليقظة والنوم، والعمل والتواكل، والإصابة والخطأ، فهو صدى لها في حركاتها، وهو المدرِّس الحكيم الذي يأخذ موضوع درسه من حوادث يومه.

نعم، إنه بعد هذه الثورة على الشعر القديم، نظم في موضوعاته، ولكنه حتى في هذه لا ينسى مقامه، ولا يجهل رسالته، ولا يفوته غرضه، فهو ينتهز فرصة تحية العام الجديد، وتحية المليك، ورثاء الفقيد، وتهاني العيد؛ ليبث في ذلك كله عاطفته الوطنية، ونظراته الأخلاقية، وليبشر وينذر، ويرغب ويرهب؛ فهو مجدِّد من هذه الناحية في موضوعاته الجديدة وموضوعاته القديمة، حتى في وصفه لا يريد أن يخليه من غرضه الذي ملك عليه قلبه، ولا يحاول أن يجعله أدباً صِرفاً؛ فهو يشبه طول الليل بعهد الاحتلال، إلى كثير من أمثال ذلك.

ويتغزل في هذا الطور من الحياة، ولكن لا في جارية ولا في غلام، ويتغنَّى ولكن لا في كأس أو مدام، إنما يتغزَّل في مصر، ويتغنَّى بمصر؛ ويأرق في حب مصر:

وما أنا والغرامُ وشابَ رأسي ... وغالَ شبابيَ الخطبُ الجسامُ
لعمركَ ما أرقْتُ لغيرِ مصرٍ ... وما لي دونها أملٌ يرامُ
ذكرتُ جلالَها أيامَ كانتْ ... تصولُ بها الفراعنةُ العظامُ
وأيامُ الرجالِ بها رجالٌ ... وأيامُ الزمانِ لها غلامُ
فأقلق مضجعي ما باتَ فيها ... وباتتْ مصرُ فيه فهلْ أُلامُ؟

لم يشأ حافظ أن يكون شعره في وطنياته طبلاً أجوف، يقول القول عامّاً لا يستند إلى مادة من حقائق، وإنما اتخذ ما يحدث من أحداث اجتماعية في عصره أساساً لدعوته، وسناداً لهجمته.

فقد كان يتربص كل حادث مهم يعرض فيخلق منه موضوعاً لشعره، ويملؤه بما يجيش في صدره.

تقوم حركة الجامعة، ويحتدم الجدال بين أنصار الكتاتيب وأنصار الجامعة، فيناصر الحركة الوطنية، ويدعو إلى التبرع للجامعة، ويبيِّن مزاياها، ويكتتب هو بالشعر. كما يقول. ليكتتب قومه بالمال.

وتحدث حادثة المؤيد، وينقسم فيها الرأي العام في مصر قسمين: قسم يطالب بحرية المرأة في الزواج، وقسم يطالب بالمحافظة على التقاليد، فيتخذ ذلك وسيلة إلى تقريع المصريين باهتمامهم بصغائر الأمور، وتركهم جسامها، وتحزبهم فئات: منهم من يلوذ بالأمير، ومن يلوذ بالعميد، ومن يصيح مع الصائحين، ثم يلذعهم لذعاً أليماً في حبهم للمجاملة، وتركهم الصراحة، وإلا فمالهم يقرِّعون صاحب المؤيد على فعلته، والوفود تتوافد على بيته.

وتحدث حادثة دنشواي فيشنُّ الغارة على الإنجليز في تصرفهم، وعلى بعض المصريين في معاونتهم، وعلى المصريين جميعاً في استكانتهم، ويلهب الشعور، ويشعل الحماسة، ويستثير الدمع.

ويتحدّث الناس في اللغة العربية، وهل هي أداة صالحة للعلوم الحديثة،

والأدب الحديث، فيبين محاسنها، ويظهر مزاياها، ويدعو إلى إنهاضها، وينعى على من لم يأخذ بيدها؛ وهكذا شعره في رعاية الأطفال، والجمعية الخيرية الإسلامية، ومساعدة العميان؛ وما إليها.

كان في شعره سجل الأحداث، إنما يسجلها بدماء قلبه، وأجزاء روحه، ويصوغ منها أدباً قيماً يستحث النفوس، ويدفع إلى النهضة، سواء أضحك في شعره أم بكى، وأمّل أم يئس.

ويتسع أفقه في كثير من الأحيان، فينظر إلى الوحدة العربية، والوحدة الإسلامية، فكم قال في علاقة الشاميين والمصريين، وفي الدعوة إلى الإخاء والقضاء على من يبذر بذور البغضاء؛ وكم قال في علاقة مصر بالأستانة، وتمنى نهضة الخلافة، ورفع لوائها، وعودة مكانتها؛ وكم شعر في وحدة الشرق وتعاونه، وتبادل المنافع بين أجزائه، فكان شعره مقرّباً للقلوب، داعياً إلى ائتلاف الشعوب، ينتهز لذلك كل فرصة، كافتتاح السكة الحديدية الحجازية، وأعياد الدستور للأمة التركية، وحفلات التكريم التي يشترك فيها أدباء الشرق، ونحو ذلك، بل أحياناً يزيد اتساع أفقه، فينظر إلى الإنسانية كلها، كالذي يقوله في زلزال مسينا:

فسلامٌ عليكَ يومَ توليـ ـتَ بما فيكَ من مغانٍ حسانِ
وسلامٌ على امرئٍ جادَ بالدمـ ـع وثنّى بالأصفرِ الرنّانِ
ذاك حقُّ الإنسانِ عند بني الإنسـ ـانِ لمْ أدعكُمْ إلى إحسانِ

ومما يتصل بناحية حافظ الاجتماعية أشدّ اتصال شعره في الرثاء، فقد أكثر منه، كما في ديوانه. وقد قال في ذلك عن نفسه:

إذا تصفحت ديواني لتقرأني وجدتَ شعرَ المراثي نصفَ ديواني

وقد أجاد فيه كل الإجادة؛ وأحسن كل الإحسان، وسبب ذلك، أنه استطاع في كثير من الأحيان أن ينقل الرثاء من مسألة فردية إلى مسألة اجتماعية، فموت

الأستاذ الشيخ محمد عبده نكبة على مصر، وعلى العالم الإسلامي، وموت مصطفى كامل كارثة على مصر وعلى الوطنية الحقة، فهو يتسلل في حذق ومهارة بعد تصوير الفقيد صورة كاملة، إلى المسائل العامة الاجتماعية، وبذلك يجلس حافظ على عرشه، ويقول في سهولة وجزالة ما برع فيه وفاق أقرانه.

وشيء آخر، وهو أن الموت كان عند حافظ وسيلة من وسائل شكوى الزمان والحنق عليه، والغيظ منه؛ فالزمان قد فعل بحافظ الأفاعيل، فرماه بالبؤس والفقر، ورمى أمته بالتفرّق والتواكل، وبالاحتلال، ورمى العالم الإسلامي بالغرب يمتص دمه، ويسومه سوء العذاب، فما هو إلا أن يموت ميت من أصدقائه حتى ينغر جرحه وينفجر ألمه.

وثالث، هو أنه - رحمه الله - كان شديد الخوف من الموت، دعاه ذلك إلى أن ينعي نفسه، ويتألم كثيراً لشيخوخته، ويتوهم المرض في كل عضو من أعضائه، فإذا مات قرين له أو صديق أو نديم راعه ذلك؛ لأن موته إنذار بموت حافظ، وما أشدّ وقْع ذلك على نفسه.

فكان يصوغ من نبوغه في الناحية الاجتماعية، ومن بغضه للدهر وحنقه عليه، ومن إشفاقه على نفسه، رثاء يقطع الأحشاء، ويذيب لفائف القلب؛ ولولا هذه مجتمعة ما بلغ في الرثاء ما بلغ.

* * *

قد يؤخذ عليه أنه لم يكن يتعمق في دراسة المسائل الاجتماعية، ولم يكن يكوِّن فيها رأياً بعد بحثها وتمحيصها، ودرس حججها، كموقفه في مسألة الزوجية، لقد هرب من إبداء رأيه فيها، ولم يتحيز إلى أحد الفريقين، وترك المتنازعين يتنازعون في حرية المرأة وتقييدها، وحلَّق في المسائل العامة التي أشرت إليها قبل؛ وكموقفه إزاء دعوة قاسم أمين، فقد حكى عنه بعض أصدقائه رواية عنه، أنه لم يقرأ كتاب تحرير المرأة، وإن كان قال فيه شعراً، ولم يقطع بإصابة قاسم أو خطئه، ويظل على هذا حتى في رثائه، فيقول:

إن رَأيْتَ رأياً في الحجاب ولم تعصم فتلك مراتب الرسُلِ
الحكم للأيام مرجعه فيما رأيت فنم ولا تسل
فإذا أصبت فأنت خير فتى وضع الدواء مواضع العلل
أو لا فحسبك ما شرفت به وتركت في دنياك من عمل؟

فتراه مضطرباً لا يستطيع الجزم برأي؛ أو هو لا يريد، وتراه في بعض المواقف السياسية يكتفي بسرد آراء الفريقين وحججهم، كما في قصيدته في وداع اللورد كرومر، فقد حكى فيها آراء المادحين وآراء الناقدين، ثم قال:

فهذا حديث الناس والناس ألسن إذا قال هذا صاح ذاك مفندا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم لسجلت لي رأياً وبلغت مقصدا
ولكنني في معرض القول شاعر أضاف إلى التاريخ قولاً مخلدا

وهرب بذلك من إبداء رأي، وترجيح قول على قول.

ولكن قد يخفف من هذا النقص أن هناك فرقاً كبيراً بين الأديب والعالم؛ فالعالم يلاحظ الأشياء ليستكشف ظواهرها وقوانينها، وعلاقتها بالأشياء الأخر، وعلاقتها بالظروف التي تحيط بها، على حين أن الأديب يلاحظ الأشياء من حيث علاقتها بعواطف الإنسان وطبيعته الأخلاقية؛ فالعالم بالنبات مثلاً يدرسه ليكشف كل الطبائع الخاصة به، وأوجه الشبه بينه وبين أمثاله من النباتات الأخر، ووظيفة كل جزء منه، والتغيرات التي تطرأ عليه كلما نما، حتى يصل به إلى الموت والفناء.

أما الأديب فلا يهمه كل ذلك، إنما النبات في نظره قد خلق لجماله، وليست شجرة الورد في نظره إلا زهرته الجميلة وأريجها العطر.

فهذه الناحية الخاصة التي يُعنى بها الأديب تغتفر لحافظ قلة عمقه في البحث وإمعانه في الدرس، وتخفف حدة نقدنا في أنه كان ينظر إلى الأشياء نظرة عامة من ناحية اتصالها بعواطف الجمهور.

ومما يتصل بهذا أن حافظاً كان يؤثر في الجمهور بإلقائه بالقدر الذي يؤثر فيهم بنفس شعره، لقد كان في نبرات صوته وحسن إجادته في الإلقاء يلعب بعواطف السامعين كما يلعب بها بألفاظه ومعانيه. ومن أجل هذا، يحسن ألّا يقوّم شعر حافظ ومقدار أثره في الجمهور بمقدار ما يقيسه قارئ لديوانه، فهو بقراءته يفقد جزءاً كبيراً من تأثيره السحري الذي كان يتركه في سامعه. ومن أجل هذا كان يطيل الوقت في تخير اللفظ الذي يحسن وقعه في السمع، كما يتخير الانسجام فيتغنَّى بالبيت قبل أن يدخله في عداد شعره، وينصت إلى جرسه ووقعه على سمعه قبل أن يبدأ بإيقاعه على أسماع الناس.

وعلى الجملة، كان حافظ يرصد الحوادث الاجتماعية والسياسية كما يرصدها رجال مصر على اختلاف مناحيهم؛ فيصوغها الصحفيون الوطنيون مقالات حارَّة قوية؛ ويصوغها القادة وأولو الرأي أفكاراً ينادون بها في مجلس الشورى، أو الجمعية العمومية، أو أحاديث وحكماً وأمثالاً في مجالسهم الخاصة، ويصوغها حافظ شعراً قويّاً يغذي نفوس الشباب، ويلهب شعور من سمعه.

كان طلبة المدارس الثانوية والعالية ينحازون إلى معسكرين: قسم يتعصب لحافظ ويفضله على شوقي، وقسم يتعصب لشوقي ويفضله على حافظ؛ وكنَّا نلاحظ أن من فضَّل حافظاً كان يفضله؛ لأن شعره غذاء قلبه، وغذاء وطنيته، ومن فضَّل شوقي فضَّله لفنِّه وخياله، فشبيبة الوطنية إمامهم حافظ، وشبيبة الفن إمامهم شوقي.

* * *

ظلّ حافظ يغني بشعره التقليديّ - أولاً - والجديدّ - ثانياً - نحو خمسة عشر عاماً تنتهي سنة 1911م، لما عرضت عليه (وظيفة) دار الكتب.

وطبيعي أن (الوظيفة) الحكومية لم تكن تتفق وشعر حافظ السياسي والاجتماعي فهو يدعو المصريين إلى الثورة؛ والإنجليز إلى الجلاء، وحرام

على الموظف وقتذاك أن يتكلم في السياسة، وأن يتصل بالجرائد، فكيف يسمح بالشعر السياسي عامة، ولشعر حافظ خاصة؟!

كان حافظ يفهم كل هذا حق الفهم، فلما قبل الوظيفة كان معنى قبولها سكوته في هذا الباب، وقد برَّ بوعده، ووفَّى بشرطه غالباً؛ فلم يقل من الشعر إلا قليلاً، وفي مناسبات ملحة، وبتحفظ تام وحذر شديد، أو أن تحميه الظروف.

عَيَّره كثيرون بذلك وبقبوله الوظيفة، ولكن لماذا نعيره وحده بالوظيفة ولا نعير من ألجأه إليها؟ لماذا نطلب منه التضحية بقوته، ونؤنبه على سكوته؟ ولا نؤنب الأمة وقتذاك تعجب به، ثم يتبخر هذا الإعجاب، ولا يتحوَّل إلى قليل من مال يتبلغ به. الحق أن الأمة في تاريخها الماضي أبدت جموداً عجيباً وشحّاً أليماً في حافظ وأمثاله: تصفق لهم طويلاً، وتتركهم يألمون من الحاجة إلى ضروريات الحياة، وتعيبهم إذا ركنوا إلى الوظيفة، ولا تشجعهم بقليل مما في أيديها، وتنعم وتغرق في الترف، وتدعو المغني أن يغني لها، ثم تضنّ عليه بأجره، فإذا طالبها به غضبت منه.

إذاً فليس من العدل أن نسرف في نقده على صمته، ونعيبه بكسر عوده وقيثارته، فلم يفعل غير ما فعله من قبله:

غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي

إنما يصح أن يوجه إليه نقد من نوع آخر، وهو أن حافظاً لم يكن يستطيع - حقّاً - وقد قبل المنصب في دار الكتب أن يقول الشعر فيما كان يقول فيه قبل من اجتماعيات وسياسيات، ولكن لماذا سكت عن فنون الشعر الأخرى، والمجال أمامه فسيح؟ فليس كل شعر سياسة واجتماعاً، فهناك شعر الطبيعة، وهناك شعر القصص، وهناك شعر الوصف، وغيره من أنواع الشعر، ولم تكن وظيفته تمنعه من أن يقول في كل ذلك، أو في شيء من ذلك، وفي شوقي المثل لهذا، فقد كان مقيداً في القصر بأشدَّ من قيود دار الكتب، ومع هذا ظل يقول في فنون مختلفة من الشعر لا تتنافى وتقاليد القصر.

ولكن ما ذنب حافظ؟! ونبوغه إنما كان في ثورته، وإجادته في فورته، وطبيعته وتعليمه ودربته تدعو إلى النبوغ في سياسياته واجتماعياته، لا في غزله وخمرياته، وما يعيب الموسيقي أن يكون ملكَ العود، وليس ملك القانون، أو ملك الكمان، وليس ملك الناي، فملكٌ في إحداها خير عندي من سُوقةٍ في جميعها.

* * *

وبعد، فما منزلة شعر حافظ في الشعر، وما قيمته الأدبية؟

الشعر الجيد - في نظري - فيضان من شعور قوي، سما به الخيال، وحلَّاه اللفظ، ووقع على نغمات الأوزان. فهو لا بد أن تتجمع فيه - ككل نوع من الأدب - عاطفة وخيال، وصياغة وجمال؛ ويمتاز الشعر بأن له لغة خاصة غير لغة النثر، وللشاعر مَلَكَة لا يمكن توضيحها تمام الوضوح، يستطيع بها أن يتخيَّر من ألفاظ اللغة ما يرى أنها أبعث على إثارة المشاعر، وأفعل في نفس السامع؛ ثم هو يضعها بعدُ في أساليب خاصة يتخيرها من بين التراكيب اللغوية، والأساليب الأدبية، يرى أنها تؤدي غرضه، وتخدم مأربه؛ كما يمتاز بما له من موسيقى عبَّر عنها بالبحور والأوزان، ولهذه الأوزان فعل في النفوس كفعل (رنات المثالث والمثاني)، وللشاعر قدرة على أن يختار منها ما يناسب موضوعه، من رقة ولين في شعر الغزل، وقوة وجلبة في شعر الحماسة. والقصيدة على قافية قد يكون لها من الأثر في النفس ما ليس لقافية أخرى، وهكذا.

وأخيراً، حاجة الشاعر إلى الخيال الخصب أقوى من حاجة الناثر! فلا بد له من اختراع صور، وتأليف مناظر، ومقارنة صورة بصورة، ومنظر بمنظر، حتى يثير المشاعر، ويحرِّك العواطف، ويفعل في النفوس فعل السحر.

وقد سلم لشاعرنا من هذه الأمور ثلاثة: قوَّة العاطفة، وحسن الصياغة، وجمال الموسيقى، وأعوزه أمر منها وهو قوَّة الخيال.

فأما عاطفته فقوية فيَّاضة، وأكبر مظهر لقوّتها إثارة نفس السامع والقارئ؛ فما يسمع شعره سامع ولا يقرؤه قارئ إلا توثبت نفسه، وهاجت مشاعره؛ وعواطفه صحيحة لا مريضة، والعاطفة الصحيحة هي التي تدعو لأن تكون حياتنا أسعد وأقوى؛ فحافظ يريد منَّا أن نتبوأ مقعدنا بين الأمم، وأن يرفع عنَّا نير الاحتلال، وأن يعادل الشرق الغرب، وأن تكون حياتنا الاجتماعية خيراً مما هي، فلا تواكل ولا استنامة ولا خنوع. ويريد أن تكون لغتنا حية قوية؛ وأن نُجِدَّ في الحياة حتى ننعم بطيباتها، ونحو ذلك من وجوه الإصلاح، فهو يمتلئ شعوراً بذلك، ثم يصوغه شعراً يسير فينا سير العافية. وأجمل ما في هذه العاطفة أنها ليست من ذلك النوع المألوف الذي اعتدناه في كثير من الأدب العربي من إفراط في المديح؛ فإن العاطفة التي يبعثها ضعيفة من ناحية ميلها إلى أمور شخصية؛ والأدب الذي ينبعث من عاطفة عامة ويبعث عليها خير من الذي ينبعث عن عاطفة شخصية ويبعث عليها. كما أن عاطفته ليست من هذا النوع الذي يذوب رقة في غزل، أو هياماً في حب؛ فإن هذا النوع قد كثر حتى ملَّ، وهو في كثير من الأحيان أجوف؛ وهو في كثير من الأحيان نتاج عاطفة مريضة، فليس من الخير أن يبيع الإنسان عواطفه بهذه السهولة وهذا الرخص.

فمزية عاطفة (حافظ) في شعره عمومها وقوَّتها، وإن شئت فقل: وجِدَّتها؛ فلم نعرف شاعراً عربيّاً قبله، ولا معاصراً له أفاض في العاطفة الوطنية والاجتماعية إفاضته.

قد يؤخذ عليه أن عاطفته ينقصها التنوّع. كما أشرنا إلى ذلك قبل. فلا تجد كثيراً من شعره في جمال الطبيعة، بل لا تجد شعره فيها حيّاً قويّاً، كما ترى في قصيدته في الشمس.

وسبب ذلك - على ما يظهر - أن طبيعة حافظ كانت مخالفة تمام المخالفة

لمظهره الخارجي؛ كان مظهره الخارجي ضحوكاً مَرِحاً، لا يراه الرائي حتى يضحك من ضحكه، ولا يكون في مجلس حتى يملأه سروراً وضحكاً، ولكنه في أعماق نفسه حزين، كالشمعة تضيء وهي تحترق، أو كالممثل يجيد تمثيل دور الضاحك وهو في نفسه يذوب حسرات.

وهذا ما يعلل أيضاً ضعف الفكاهة في شعره، وقوّتها في مجلسه؛ وهذا ما يعلل أن نصف شعره رثاءٌ كما يقول هو.

هذا الطبع الحزين يبعث عواطف حزينة، ويحمل على الإجادة فيها، فتوافق طبعه وشكوى الزمان والرثاء والبكاء على الأمة وعلى الشرق، ونحو ذلك.

ومن أجل هذا أيضاً أجاد حافظ في أحد وجهي الوطنية، أكثر مما أجاد في وجهها الآخر، ذلك أن الشعر في الوطنيات والسياسيات والاجتماعيات يدور على التفاؤل والتشاؤم، والتأميل وعدمه، والترغيب والترهيب، والمدح للتشجيع، والذم للتقريع، فأجاد حافظ في التشاؤم وفي الترهيب وفي التقريع أكثر مما أجاد في التفاؤل والترغيب والتشجيع؛ لأن الضرب الأول أنسب لحزنه، وأقرب إلى نفسه؛ والثاني يحتاج إلى مقدار كبير من الأمل، والأمل يحتاج إلى سرور، وهو قليل في نفسه، فخير شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة، فأما فرح بالطبيعة، وفرح بنفسه ونحو ذلك مما ينبعث من عاطفة السرور، فلم يكن له كبير مجال في شعره.

هذه العاطفة القوية التي شرحنا، بحثت لها عن الثوب الذي تلبسه حتى عثرت عليه، فكانت صيغتها قوية، وموسيقاها قوية. يفتش عن اللفظ حتى يجد أنسبه لنفسه، وأنسبه لمعناه، ويعرض للمترادفات، يقلبها حتى يختار خيرها، وينثر كنانته ليتخيَّر أشدّها عوداً، وأصلبها مكسراً؛ ويعمد إلى الأساليب يتصفحها ليوائم بين المعنى واللفظ والأسلوب، وكان (حافظ) يسمي هذه (العملية) كلها (التذوق)، ويمدح بعض الشعراء بأنه (ذوَّاق)

يريد بذلك أن له ذوقاً مرهفاً في اختيار اللفظ واختيار الأسلوب، وقد بالغ في ذلك حتى كان جهده في اختيار الألفاظ والأساليب يفوق جهده في ابتكار المعاني، فهو يذهب مذهب من يرى أن المعاني مطروحة في الطريق، وإنما الإجادة في الصياغة، وهو يستعين على ذلك بالموسيقى: موسيقى اللفظ، وموسيقى الأسلوب، وموسيقى الأوزان والقوافي.

قد كان يصنع البيت فيردّده على أذنه بإنشاده اللطيف حتى يتبيَّن موقعه من أذنه قبل أن يوقعه على آذان الناس، ويتذوق موسيقاه بنفسه قبل أن يتذوقها الناس، فكان يراعي موسيقى الطول والقصر، وموسيقى الفخامة والرقة، وموسيقى اللين والشدة، ويوائم بين ذلك وموضوعه، وبين ذلك ومعانيه وأغراضه، فيوفَّق في ذلك توفيقاً كبيراً.

أما خياله، فكان مع الأسف خيالاً قريباً، قلَّل حظَّه من الابتكار، وقلَّل حظَّه من التصوير، قصر خياله عن أن يغوص في باطن الشيء فيصل إلى مكان الحياة منه، ثم يخرجه إلى الناس كما يشعر به، وقصر عن أن يحلِّق في السماء فيصور منظراً عامّاً يجذب النفوس إليه.

لقد حاول أن يخلق بخياله قصة، ولكنها خرجت قصة عرجاء، تتخلج على الأرض، ولا تسبح في السماء، قريبة المنال، مضحكة التصوير. إن شئت فاقرأ قصته في مدح البارودي التي مطلعها:

تعمدت قتلي في الهوى وتعمدا

إذ يصف ذهابه إلى حبيبته خفية، فيقلِّد عمر بن أبي ربيعة في رائيته المشهورة، ثم لا يحسن التقليد، ولا يأتي خياله بجديد، أو فاقرأ قصته الشعرية التي وضعها في ضرب الأسطول الطلياني لمدينة بيروت، والتي مطلعها:

لَيْلايَ ما أنا حَيٌّ يُرجى ولا أنا ميت

ترَ خيالاً ساذجاً وتصويراً مهلهلاً.

ولكن من ذا الذي حاز الكمال أجمع؟ ومن ذا الذي بلغ شأو الفن في جميع عناصره؟ حسب الشاعر النابغة أن تكتمل فيه صفات، ثم يستطيع أن يعوِّض ما نقص بالبراعة التامة فيما أتقن؛ لئن نقص حافظ في الخيال لقد غطَّى عيبه شيوع الجمال في سائر نواحيه، وكفاه ذلك موهبة.

* * *

وقد رأى حضرة صاحب المعالي علي زكي العرابي باشا وزير المعارف العمومية حبّاً منه في الأدب، وتقديراً لحق الوطن، أن يجمع شعر حافظ، وتقوم على طبعه وزارة المعارف.

وكان من حظي أن ندبني معاليه للقيام بهذا العمل، فتفضل وطلب إليَّ جمع شعره وضبطه وشرحه، وتبويبه وتقديمه، فاغتبطت للمساهمة في هذا العمل الجليل؛ لأن حافظاً شاعر كبير، ومن واجبه الأدبي أن نخلد شعره، ونحفظ ذكره؛ وهو شاعر الوطنية في عصرنا، غذَّى شعره الشعور الوطني، وألهبه غيرة وحماسة، وكان داعياً للنهضة والمطالبة بالحركة حتى ننال استقلالنا.

فكان واجباً - وقد بدأنا - نجني ثمار جهادنا، أن نؤرِّخ قادة حركتنا؛ وأول واجب نفعله في تاريخ شاعر أن نجمع شعره، ونعنى بنشره، ونأخذ في درسه.

ومن حسن الطالع أن يكون صدور ديوانه معاصراً لنجاح دعوته ودعوة زملائه من القادة والزعماء والخطباء والأدباء الذين تعهدوا الحركة الوطنية، وسهروا عليها، وضحوا في سبيلها، ولم يدركهم في ذلك سأمٌ ولا مَللٌ، ولم يفتَّ في ساعدهم تعذيب ولا اضطهاد، حتى تمت المعاهدة، وبدأنا ننعم بالاستقلال، نحمل عبئنا على ظهورنا، ونبذل جهدنا لنيِّل سعادتنا بأيدينا.

فإخراج ديوان حافظ أمانة في عنقنا نؤدّيها، وواجب ننهض به.

* * *

وكان من حظي أيضاً أن شاركني في هذا العمل الأستاذان: (أحمد الزين)، (وإبراهيم الإبياري)؛ فقد لقيا من العناء في الضبط والشرح والتصحيح والترتيب ما أترك تقديره للقارئ الكريم، وكان لهما من العمل وبذل الجهد في ذلك فوق ما لي، وإليهما يرجع أكثر الفضل في إخراج الديوان على هذا الوضع.

كان حافظ - رحمه الله - غير منظم في عمله، ولا حريص على تدوين شعره، فيكتبه في ورقة حيثما اتفق، ويلقيها أيضاً حيثما اتفق، فضاع كثير منه، ولولا فضل الصحف والمجلات في نشره والاحتفاظ به، لما بقي من شعره إلا القليل.

وقد جمع في حياته بعضاً منه، معتمداً على ما نُشر في الصحف والمجلات، وعلى ما كان منه عند الأصدقاء، ولكن وقف في ذلك عند أجزاء ثلاثة صغار؛ نُشر الجزء الأول منها سنة 1319هـ مع تعليقات قيِّمة بقلم محمد إبراهيم هلال بك، وقد استفدنا منها؛ ونُشر الثاني سنة 1325هـ (1907م)، والثالث سنة 1329هـ (1911م)؛ فأما شعره بعد ذلك فلم يُجمع في حياته.

فلما توفي حافظ جمع الأديب الدمشقي السيد أحمد عبيد طائفة من شعره لم تُنشر في ديوانه، ونشرها بدمشق سنة 1351هـ، وكذلك فعل في شوقي، وجمع ما نُشر في رثائهما، وبعض ما كُتب عنهما، وسمَّى كتابه (ذكرى الشاعرين).

ثم نشرت مكتبة الهلال في مصر سنة 1353هـ ديوانه مجموعاً فيه ما نُشر من قبل في الأجزاء الثلاثة، وما نشره السيد أحمد عبيد في (ذكرى الشاعرين).

ولكن ما ورد في ذلك كله ليس وافياً ولا مستقصياً، فاضطررنا إلى أن نرجع إلى المجلات والصحف نتصفحها عدداً عدداً، من يوم أن نُشر له شعر، إلى يوم وفاته؛ ورجونا في صفحات الجرائد من القرَّاء أن يبعثوا إلينا ما كان

عندهم من شعره، فتمت لنا بذلك مجموعة هي أقصى ما وصل إليه جهدنا.

ثم رتبناها حسب الموضوعات، فذكرنا كل ما قاله في المديح، ثم ما قاله في الهجاء... إلخ. وفي كل باب رتبنا ما جاء فيه حسب تاريخ قوله أو نشره، ثم أتبعنا ذلك بما قاله ولم نقف على تاريخه بالضبط، حتى ولو كانت القرائن تدل على زمنه، ورأينا هذا الوضع أقرب إلى الإفادة، وأدل على مناحي الشاعر، ووضعنا فهرساً مرتبة فيه القصائد حسب حروف الهجاء في آخر الديوان؛ ليسهل الرجوع إلى القصيدة لمن حفظ قافيتها.

وقد ضبطناه ضبطاً كاملاً لتسهل قراءته على الناشئ، وشرحناه نوعين من الشرح: شرحاً بذكر ظروف القصيدة وملابساتها وتاريخ نشرها أو قولها، حتى يتمكن القارئ من معرفة إشاراتها وجوّها؛ إذ في ذلك أكبر إعانة على فهمها وتقديرها؛ وشرحاً لغويّاً لمفرداتها وأساليبها، وبيان المراد من عباراتها، وذكر الحوادث التاريخية التي أشار إليها في أبياتها، وقد نكون بالغنا بعض الشيء في كثرة الشرح والضبط، وعذرنا أننا راعينا نابتة الأدب، وناشئة الشعر، أكثر مما راعينا الخاصة والمنتهين، وقدَّرنا أن الديوان ستتناوله أيدي الطلبة في المدارس الثانوية ومَن في مستواهم، فقصدناهم بالشرح، ونظرنا إليهم في البسط، ونرجو أن نكون قد وفِّقنا في تحقيق ما نُدِبنا له، وأدّينا شيئاً من واجب الأمة والوزير والشاعر، والله الموفق.

* * *

تاريخ القرآن

كتاب وجيز يبحث عن سيرة النبي الأكرم، والقرآن الكريم، والأدوار التي مرّت به من حيث كتابته وجمعه وترتيبه وترجمته إلى سائر اللغات

تأليف

أبي عبد الله الزنجاني

عضو المجمع العلمي العربي في دمشق

ومصدر بمقدمة للأستاذ

أحمد أمين

مؤلف كتاب فجر الاسلام، والأستاذ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

القاهرة

أُتيحت لي فرصة أن أُقَدِّم للقراء (تاريخ القرآن) للأستاذ أبي عبدالله الزنجاني، فاغتبطتُ لذلك، لأسباب:

أولها: أن الأستاذ من أكبر علماء الشيعة ومجتهديهم، وكاتب هذه السطور سُنّي، وطالما حزَّ في نفسي أن أرى الخلاف بين السنُيين والشيعيين يشتد ويحتدّ ويؤدي إلى جدل عنيف، وتدابر وتقاطع، ولم يقف الأمر عند الجدل الكلامي، والبغض النفساني، بل كثيراً ما تعداه إلى تجريد السيف واحتدام القتال. ولو أحصينا ما كان بينهم من عهد عليٍّ رضي الله عنه إلى الآن لبلغت حوادثه المجلدات الضخمة، كلها خلاف وكلها دماء، ولو كان أنفق هذا الجهد في سبيل الإصلاح لبلغ المسلمون ذروة المجد، ولكن أبت السياسة أحياناً، والمطامع الشخصية أحياناً، إلا أن تثير الفتن، وتدبر الدسائس، وتفرق بين الإخوة. ويعجب المؤرخ أن يرى النزاع يبلغ هذا المبلغ بين فئتين يجمعهما الاعتقاد بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن المؤمنين إخوة، ولئن ساغ في العقل أن يقتتلوا أيام كان هناك نزاع على الخلافة: من هو أحق بها ومن يتولاها، فليس يسوغ بحال من الأحوال أن يقتتلوا على خلاف أصبح في ذمة التاريخ لا يستطيع القتال والنزاع أن يعيده إلى الوجود، بل بعد أن أصبحت الخلافة نفسها مسألة تاريخية بحتة، وليس للمسلمين خليفة فعلي يضم كلمتهم، ويجمع شتاتهم، وأصبح كل الخلاف خلافاً في التاريخ، وخلافاً في الاجتهاد، ولولا ألاعيب السياسة، واستغفال الماكرين لعقول العامة، واحتفاظ أرباب الشهوات والمطامع بجاههم وسلطانهم، لانمحى الخلاف بين الشيعي والسني، ولأصبحوا بنعمة الله إخواناً، ولتعاونوا على جلب المصالح ودرء المفاسد لجميعهم، ولنظر بعضهم إلى بعض كما ينظر حنفي إلى مالكي، ومالكي إلى شافعي.

وأظن أن الوقت قد حان لأن يفكر عقلاء الطائفتين في سبيل الوئام، ويعملوا على إحياء عوامل الألفة وإماتة الخصام، ويتركوا للعلماء البحث حرّاً في التاريخ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب، كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي

وتاريخي؛ وتبعة هذا الخلاف تقع على رؤساء الطائفتين؛ ففي يدهم تقليله وفناؤه، كما في يدهم إشعاله وإنماؤه.

ففرصة سعيدة أراها أن يؤلف الكتابَ شيعيٌّ، ويقدمه للقراء سنّي، ولعلها بادرة حسنة من بوادر السير للوئام، والدعوة إلى السلام، والعمل لخير المسلمين من غير نظر إلى فرقة أو مذهب، وهو ما يتطلبه ويوجبه موقف المسلمين الحاضر.

وثانيها: أنه كان من حسن التوفيق أن عرفت الأستاذ أبا عبدالله الزنجاني حين زيارته مصر سنة 1935م، فتوثقت بيننا الصلة، وتأكدت الصداقة على قرب العهد بالتعارف، وقصر زمن اللقاء، ولكن قرب الأرواح يفعل ما لا يفعله تراخي الزمن وطول العهد، وصَدَقَ الحديث: (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)، وقد رأيته واسع الاطلاع، عميق التفكير، غزير العلم بالفلسفة الإسلامية ومناحيها وأطوارها، على صفاء في نفسه، وسماحة في خُلقه، مما حببه إليَّ، وحبب لي أن أقدم كتابه لقرائه.

ثالثها: موضوع الكتاب أو الرسالة وهو تاريخ القرآن من حيث الخط والجمع والترتيب والإعراب والإعجام، وهو موضوع شاق عسير تعرض له الأقدمون، ولا يزال مجال القول فيه ذا سعة.

وقد كان في نية الأستاذ الزنجاني أن يفيض فيه، ويخرج كتاباً واسعاً يجمع إلى سعة الرواية إعمال العقل، ولكن حالت ظروف دون ذلك، فخرج الكتاب موجزاً مختصراً، ومع هذا فقد جمع فيه كثيراً مما تشتت في ثنايا الكتب من مؤلفين سنيين وشيعيين.

ولعل الزمن والظروف تهيئ له أن يتبع خطوته هذه بخطوة أخرى، فيهدي للقراء في هذا الموضوع بحثاً أوفى، وكتاباً أوسع يكشف ما غمض من هذه المسائل العويصة، والدقائق العميقة، وهو بذلك جدير، وفَّقه الله.

25 يونيه سنة 1935م

* * *

لجنة التأليف والترجمة والنشر

ديوان
إسماعيل صبري باشا

صححه وضبطه وشرحه ورتبه

الأستاذ أحمد الزين

بدار الكتب المصرية

وقام بجمعه

صاحب العزة حسن رفعت بك

المستشار بمحكمة الاستئناف سابقا

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

لست أريد أن أتعرض لتاريخ حياته، ولا أن أذكر بالتفصيل قيمة أدبه؛ فقد تكفل بذلك أصدقائي الثلاثة: الدكتور طه حسين بك، والأستاذ أحمد الزين، والأستاذ أنطون الجميّل بك، فوفّوه حقه، وعرضوا موضوعاتهم أجمل عرض وأدقّه، فلأجتزئ بالقول في وصف شعوري بشعره، وتذوّقي لأدبه.

لقد تتبعت ديوانه فاستوقف نظري بيتان له، وهما:

شعر الفتى عِرضُه الثاني فأحْرِبه ... ألّا يشوّه بالأقذار والوَضَرِ

فانقد كلامَك قبل الناقدين تَحُط ... ثاني النفيسَين من لغوٍ ومن هَذَرِ

ورأيت أنه بهذين البيتين قد سلَّمنا مقياس تقويمه ونقده، فقد أحسست بعد قراءة الديوان أنه قد التزم هذه النصيحة إلى أقصى غاية، وطبقها على نفسه في شعره إلى أبعد مدى، فكان يغار على شعره غيرته على عِرضه؛ لقد كان في عِرضه يحرص على أن يطيبَ في المحافل نشرُه، ويخلد في الصحائف ذكره، ويأتي بالمكرمات تملأ مسامع الدهر، وتتناقلها ألسنة الشكر؛ يترفَّع عن النقيصة، ويتصوَّن عن الدنايا، وهو في شعره مثله في عِرضه، يخاف العثار ويَرهب النقد، ويتحرج أن يأتي بغير ما هو الأَوْلى، وأن يصدر عنه ما ليس بالأعلى، ويعدُّ البيت من الشعر يصدر عنه كالفعل المشهور، والأثر المأثور، يحب الحيطة له، والتوفر على الإحسان فيه، دعاه ذلك لأن يتريث في شعره، ويتمهل في صَوْغه، يغوص على المعاني كالغَوّاص على اللآلئ، ثم لا يقنع بأية لؤلؤة، بل لا يرضى بها إلا أن تكون غاية القصد، وواسطة العقد، فإذا عثر عليها تعب في أن يتخير لها سِلكَها ووفقها، حتى تخرج كاملة يُعجَب بها الذوق الراقي، والفنّانُ الخبير، فهو يتخير اللفظ الشريف للمعنى الشريف، واللفظ القوي للمعنى القويّ، واللفظ الرقيق للمعنى الرقيق.

ويخيّل إليَّ - وإن لم أره - أنه كان إذا عثر على المعنى، ثم عثر على اللفظ، حاكَه في نفسه، وردّده على سمعه، ووزنه بميزانه، واستعمل كلَّ أدوات الصائغ في صياغته فنقص ممّا زاد، وزاد مما نقص، ورجّح مما خفّ، وخفّف مما رجَّح، حتى إذا أنس به واستوثق منه، نشره على الناس، وأمن على عِرضه.

من أجل ذلك قصّر ولم يطوِّل، علماً منه أن درّة واحدة قد تساوي آلاف الدنانير، وملايين الدراهم، وكلمة واحدة قد تفوق خطباً طويلة وكتباً كثيرة.

* * *

ولعلّ قارئ شعره يلحظ صنفين متميزين، ونوعين مختلفين؛ صنفاً هو فيه رسميٌّ، كشعره في المديح والتهاني والتقريظ، وهو في هذا لا يتجلّى نبوغه، ولا تظهر عبقريته، صبّ شعره في القالب الذي صبّ فيه الشعراء، وسار فيه على النهج الذي سلكه الأدباء، فممدوحه قد سفر فلاح منه هلال سعود، وبدا فكان غرة الموجود؛ وهو بحر مستعذَب الوِرد، يعمّ كلَّ الناس بالرفد؛ إلخ.

يتصنع التورية والجناس، ويختم شعره بالتاريخ كما يألف الناس.

والبَس على طُول المَدَى حُللَ (الرضا) بشعارِ (مأمون) ورُشدِ (رشيد)
فيا (مالكي) (نُعمان) خدِّك (شافعي) لدى (حنبليٍّ) العُذَل إذ قام بالعذر
يا دواءَ الزمان والأمر إن أَعْـ ـضَل خَطبٌ وعَزَّ فيه الدواءُ
إن أرضاً تسعى إليك يقيم الـ ـأنسُ فيها ويصطفيها الصفاء
فإذا سِرتَ من ديارٍ لأخرى حسدتْ أرضَها عليك السماءُ
فاهنأ بنجلك إن السعد أرَّخَه (لبيبُ دام لك المحفوظُ محمودُ)

إن كان لصبري في هذا الصنف مزية، فهو لطف ذوقه في تخيُّر لفظه، ورقّةُ حِسّه في صياغة وزنه وحلاوة جرسه.

وصنفاً آخر هو موضع نبوغه ومظهر عظمته، وهو مقطوعاته القصيرة يُجري فيها ذَوْبَ قلبه، ويمزج فيها دم نفسه بمعناه ولفظه، يغنّي فيها لنفسه، ويقصد بها إلى بثٍّ لوعته، وتخفيف كربته، وتلطيف صبابته.

يا مقرّ الغزال قد صحَّ عندي الـ ... ـيومَ أنّي اقتحمتُ منك عَرينا
رابني فيك ما أرى من عيونٍ ... بَاتَ يُغري بها السوادُ عيونا
وضلوعٍ جاءتك وهي خوالٍ ... ثم عادت ملأى هوًى وشجونا
ما الذي يبتغي غزالك منّي ... بعد كوني (ملكاً) له أن أكونا
كلما قلتُ: قد أبلَّ فؤادي ... ساورتْه الذكرى فجُنّ جنونا

إلخ.. .. إلخ

تمتاز هذه المقطوعات القصار بصدق العاطفة، حتى ليَبكي السامع لبكاه ويأنف لأنفته، ثم بدقّة المعنى ورقّته حتى كأنه مناغاة أطيار، أو مناغمة أوتار، وأخيراً بعذوبة اللفظ، فهو سهل الورود على الطبع، حَسنُ الوقع في السمع.

فبحق تَغنّى بشعره المغنّون، وتمثّل به العاشقون؛ فلئن كان هو وشعراء عصره، أمثال: حافظ وشوقي وعبدالمطلب وغيرهم، يمثلون موسيقى مختلفة الآلات، فبعضهم عُود، وبعضهم دُفٌّ، وبعضهم قانون، وبعضهم كمان، فلقد كان صبري ناياً ظريفاً يُسمع ولا يصدّع، ويُلهب ولا يُرهب، لا يُكتفى به، ولا يُستغنى عنه، ويُصْغَى إليه في دعة وسكون، لا في ضوضاء وجلبة، يذكره المحبّ ولا يذكره المحارب، ويأنس إليه العاشق ولا يعرّج عليه الثائر، لقد كان في الأغاني (طقطوقة) جميلة، لا (دوراً) مملّاً، وإن كان هو وأصحابه طاقةَ زهر، فهو زهرة البنفسج، رقيقة الحاشية، طيبة الرائحة، جميلة في غير عنف، وادعةٌ في غير ضعف، تأنس بها، وتعطف عليها؛ وتُلهِمك الحنان والرحمة، لا القسوة ولا القوة.

لقد عُرض على لجنة التأليف طبع هذا الديوان فرحَّبت به كلَّ الترحيب؛ لأن دواوين أمثاله من شعراء عصره، أمثال حافظ وشوقي ونسيم وعبدالمطلب قد طبعت، فمن الخير لمؤرخي الأدب في العصر الحديث، ومن الخير للأدباء الذين يتذوقون الأدب وينعمون به ويستلهمونه، ومن الخير للتاريخ الاجتماعي والسياسي لمصر، أن يُنشر هذا الديوان ليكمّل النقص الأدبي، ويغذّي الذوق الفَنّي، ويُلقي ضوءاً على التاريخ الاجتماعي.

رأت اللجنة هذا كلَّه فنشرته، وأحسنتْ بذلك صُنعاً.

وكان من حسن التوفيق أن يضطلع بعبئه الأستاذ أحمد الزين، فقد عاشر الشاعر وصادقه سنين طويلة، فسمع منه، وحقّق الطريقة القديمة القويمة في الرواية عنه، والمشافهة له، فمكّنه ذلك من إيضاح ما غمض، ومعرفته الصحيحة بجوِّ القصائد وأسبابها وبواعثها؛ ثم كان من مخالطته للشاعر ووقوفه على دقائق نفسه وما يوائمها وما لا يوائمها، ما ألهمه الصواب في الشرح، والتوفيق في الترجيح إذا تعدَّدت المسالك وكثرت الاحتمالات.

فخرج الديوان يُعجِب الناظر بحسن ضبطه، ويسرّ القارئ بجودة شرحه، ويقف في البلاغة موقف المساواة لا مطنباً ولا موجزاً، فجزاه الله عن الأدب خير الجزاء.

* * *

جامعة الدول العربية
الإدارة الثقافية

مؤتمر الآثار في البلاد العربية

(المنعقد في دمشق، صيف ١٩٤٧)

مطبعة جامعة فؤاد الأول

تصدير

بقلم حضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك

من دواعي غبطتي أن أقدّم للقراء خلاصة أعمال (مؤتمر الآثار في البلاد العربية) بعد أن قدّمت لهم أعمال المؤتمر الثقافي للغة العربية، وقد عقد هذان المؤتمران في صيف واحد سنة 1947م، أحدهما وهو المؤتمر الثقافي في بيت مري بلبنان، وثانيهما وهو مؤتمر الآثار في دمشق. ومما يزيدني اغتباطاً نجاح هذين المؤتمرين، ووضعهما الحجر الأساسي في بناء التعاون بين الأقطار العربية، وهو ما أرجو أن يتم بنيانه حتى يثمر ثمرته المرجوّة إن شاء الله.

وكان من أبهج المناظر التي شاهدناها في مؤتمر الآثار أن نرى عدداً كبيراً من المختصين في الآثار على اختلاف ألوانها من أبناء العرب يعرضون نتائج بحوثهم ويرسمون الخطط للبحث عن الآثار وصيانتها. وقد كان هذا العمل لعهد قريب، وقفاً على الأجانب، فهم الذين يأتون ديارنا يبحثون عن آثار أجدادنا ونحن عالة عليهم ننتظر نتيجة أبحاثهم وليس في استطاعتنا مشاركتهم. فإذا رأينا اليوم من بين أبناء البلاد من حذقوا دراسة الآثار وأخذوا عبء البحث عنها واستكشافها والعمل على صيانتها حمدنا ذلك كل الحمد واغتبطنا كل الاغتباط.

وللعناية بآثارنا فوائد لا تحصى فهي سجل لحضارتنا تدل على ما وصل إليه أسلافنا في العلوم والفنون في العصور المختلفة من رقي ومدنية، ودلالتها على ذلك باقية على الزمان. فقد تضيع الأوراق المحفوظة والكتب الموروثة، وقد يخطئ التاريخ فينسب عملاً لآخر ويحدّد للعمل زمناً غير الزمن الذي حدث فيه، وقد يهمل التاريخ عادات وتقاليد للأمم فتصحح ذلك كله الآثار بما سجلت ودونت على مخلفات لا يقوى على محوها الزمان، ولا سيما أن

الآثار هي الذروة التي بلغها العلم والفن في عصرها، فأبنية الشعوب وآثارها وأنواع فنونها يزول أكثرها مع الزمن، وإنما يبقى ما احتشد له الملوك والطبقة الأرستقراطية وأودعوه من عصارة العلوم والفنون في عصرهم وحشدوا لها مهرة الصناع والمهندسين والعلماء ليحفظوا فيها مبلغ جهدهم ويحيطوها بأنواع العظمة التي تصد الزمن عن العبث بها. فدراسة الآثار دراسة حضارة، ودراسة تاريخ، ودراسة علم وفن.

وقد اختص كل قطر من الأقطار العربية بنوع من الآثار يتفق وتاريخه ومدنيته وحضارته وتقاليد شعوبه، مما قد لا يكون له نظير في الأقطار الأخرى. فدراسة آثار كل قطر على حدتها تنفع من ناحية، ولكنها دراسة جزئية يكملها ما عند الأقطار الأخرى. لهذا كان تعاون الأثريين في الأقطار المختلفة مما يسد هذا النقص ويحقق هذا الكمال بتبادل الأبحاث والنشرات والصور.

ثم هذه الآثار مصدر لنوع من الثقافة لا غنى عنه للناشئة والمتعلمين، إذ هو يبعث فيهم الاعتزاز بماضيهم والفخر بأجدادهم، ليبنوا على اعتزازهم بالقديم اعتزازاً بالحاضر والمستقبل.

إذن كان لا بد من التعاون بين رجال الآثار في الأقطار العربية المختلفة كي ينتفع كلٌّ من آثار كلٍّ، وكيف يستفاد من الآثار في ثقافة الناشئين والمتعلمين، وكيف يسنون القوانين المتحدة لترميم الآثار وصيانتها من أحداث الزمان وحفظها من أيدي الخاطفين ونحو ذلك من ضروب المعونة التي لا بد منها لتحقيق الغرض المنشود. وهذا ما دعا الإدارة الثقافية للجامعة العربية إلى عقد هذا المؤتمر الأول الذي يعد خطوة أولى يتلوها عقد مؤتمرات أخرى لتحقيق المنافع المتبادلة.

وننتهز هذه الفرصة لشكر سوريا حكومة وشعباً، وعلى رأسها فخامة رئيس الجمهورية شكري بك القوتلي على ما بذلوا من معونة صادقة لإنجاح هذا المؤتمر والوصول به إلى غايته.

كما أشكر الأستاذ الدكتور زكي محمد حسن على ما قام به من جهد كبير في إعداد المؤتمر وتنظيم أعماله والقيام على إخراج هذا السفر القيم في هذا الشكل الأنيق. فلهم جميعاً منا أطيب الثناء والله يتولى لهم أحسن الجزاء.

* * *

الفنّ ومذاهبه في النثر العربي

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

دكتوراه في الآداب مع مرتبة الشرف الممتازة

أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب

الطبعة الأولى

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة ، تليفون ٥١٣٩٤

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

إذا عرض ناقد أمين لنقد كاتب أو شاعر نقداً وافياً فما أصعب ما يعرض له؛ لأنه مضطر أن يقرأ آثاره في دقة وإمعان، ويعرف تاريخ حياته النفسية والاجتماعية ومدى تأثيرها في أدبه، ثم يوازن بين أدبه وأدب غيره، في أي ناحية يمتاز، وفي أي ناحية لا يمتاز، وماذا جدَّد في الأدب، وما شخصيته في أدبه، وكيف نقل الأدب خطوة جديدة في الناحية التي عالجها.

والناقد يلاقي في معالجة هذه الأمور عناء أي عناء؛ لأنه لا بد أن يفحص، ولا بُدَّ أن يدقق، ولا بدّ أن ينظر بالمجهر ليتبين الخصائص الغامضة، ولا بدّ أن يتبين الصفات الجوهرية والصفات السطحية، ولا بد أن يكون مرهف الذوق يشعر بالجمال حيث كان، وبالقبح حيث كان، مهما دقَّ شأن الجمال والقبح، ثم هو إلى إدراكه للجمال - لا بدَّ أن يقوّمه ويحدد منزلته ومستواه، ويبيِّن درجته بالنسبة لنظرائه وموقفه من أقرانه.

هذا إذا عرض لأديب واحد، ناثر أو شاعر، فما بالك إذا عرض لنقد شعر أمة أو نثر أمة بأجمعها على اختلاف عصورها؟ إن الأدب يعمل في تكوينه وتلوينه البيئة الطبيعيةُ والأحوال الاجتماعية من مقدار مدنية، ومن دين وسياسة وثقافة، وأحوال اقتصادية من نعيم وبؤس، وغنى وفقر ونحو ذلك. كما يعمل في تكوينه وتلوينه شخصية الأديب، فهي شخصية مرحة أو حزينة، ثائرة أو هادئة، فاجرة أو صالحة، داعرة أو زاهدة، ترنو إلى المال أو الجاه أو الجمال أو السيادة، مائعة العاطفة أو جامدتها ونحو ذلك أيضاً.

وهذه العوامل المختلفة في تكوين الأدب أو تلوينه قد تدق حتى لا يراها حاد البصر، وقد تظهر حتى يراها الأعشى، ثم قد تكون قريبة الأثر قرب الألف من الباء، وقد تكون بعيدة بعد الألف من الياء، ولكنها مع ذلك تعمل عملها في الأدب وتؤثر فيه.

فدارس أدب أمة يجب أن يكون عالماً بتاريخها السياسي والنفسي والاجتماعي والاقتصادي والفني، دقيق الملاحظة حتى يشعر بكل عاملٍ جدَّ وإن خفي، ذوّاقاً

يتذوق تنوع الطعوم وإن تشابهت أو تقاربت.

وتأريخ الماديات عسير، فنحن إذا أردنا أن نؤرخ الملابس العربية أو العمارة الإسلامية شعرنا بثقل العبء، فكيف إذا عرضنا لتأريخ المعنويات كالفلسفة والعلم والأدب؟

وتأريخ الأدب العربي شعراً ونثراً أصعب من تأريخ أدب أي أمة أخرى، كالأدب الإنجليزي والفرنسي؛ لأنه - من ناحية - نتاج أمم كثيرة تختلف في درجات الحضارة والبيئة الطبيعية والسياسية والاجتماعية، وهذه الشؤون تجعل النتاج الأدبي مختلفاً في أساليبه ومعانيه وموضوعاته، فنتاج الأدب العربي في فارس غيره في مصر، وفي مصر غيره في الأندلس وهكذا - ومن ناحية أخرى - هو أدب طويل العمر، فله نحو خمسة عشر قرناً منذ عرفناه، تعرض فيها لأجواء مختلفة وعوامل متباينة.

لهذا كله كان تأريخه أعسر، ورصد تغييراته أشق وأغمض. كم بين امرئ القيس وأحمد شوقي من فروق، وبين ابن المقفع والمنفلوطي من تباين؟ وكم بين البيئة الجاهلية منذ خمسة عشر قرناً والبيئة المصرية الآن من تنافر؟

ومما يزيد الأمر صعوبة أن التغير في الأدب من شعر ونثر يحدث كما يحدث النمو الطبيعي أو الانهيار الطبيعي، في هدوء لا يدرك، وفي بطء لا يكاد يحس، وبين كل عصرين مخضرمون يربطون بين الماضي والحاضر حتى لا يكون عنف في الانتقال، ولا قفز في التدرج، فيخيل للمرء أن الأمر جار على سَنَن واحد مع التغير المستمر والتنقل الدائم.

ثم هناك في كل أدب عنصران: عنصر استقرار، وعنصر تغير، كأوزان الشعر وموضوعاته، وكتكوين الجمل من فعل وفاعل ومبتدأ وخبر، مع تغير الأساليب بتغير الأدباء.

هذا قليل من كثير مما يلاقي مؤرخ الأدب من عناء ومشكلات ومصاعب.

* * *

وقد بدأنا نهضتنا الأدبية بدراسة بدائية سهلة بتأريخ حياة الشاعر أو الناثر وذكر مختارات من شعره ونثره. ثم تقدمنا خطوة بتقديم مقدمة مختصرة في ذكر الحياة الأدبية في كل عصر، ثم الانتقال سريعاً إلى الطريق الآمن: وهو ترجمة حياة الشعراء والكتاب، ثم تقدمنا خطوة أخرى في دراسة الشاعر أو الكاتب دراسة تحليلية مفصلة جامعة فاحصة ناقدة. واتجه باحثون آخرون إلى تأريخ نوع من الشعر أو نوع من النثر.

واليوم يأتي (شوقي ضيف) في كتابه هذا فيؤرخ للنثر العربي من مبدئه إلى اليوم في العصور: الجاهلي والإسلامي والعباسي والأندلسي وفي مصر؛ وقد شعر بثقل العبء فقصر نفسه على تأريخ الصناعة الفنية في النثر العربي.

لقد كانت مهمة شاقة عسيرة، وكان طُموحاً بعيداً، وأمراً حريّاً أن تقوم به العصبة أولو القوة. ولكنه صَبَّر نفسه على الدرس، وأطال النظر والتفكير في المراجع الكثيرة، يقف عندها، ويسجل خواصها، ويتنقل في مراحلها، ويدوّن دلالاتها في أمانة وإخلاص.

ولئن كان ما قاله في هذا الموضوع هو الكلمة الأولى فهي كلمة قيمة تفتح آفاقاً بعيدة، أرجو أن تكون بعدها كلمات منه أكثر تفصيلاً. أحسن ما أعجبني منه الجِد في البحث، والأناة في الاستنتاج، وعدم السرعة في البت، وتواضع العلماء، وتقدير التبعة في مثل هذا الموضوع.

أرجو أن يكون ما ناله من التوفيق في هذا الكتاب يستتبع توفيقات أخرى متتابعة إن شاء الله.

* * *

لجنة الجامعيين لنشر العـ

الحركة الفكرية في مصر

فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول

تأليف

دكتور عبد اللطيف حمزه

المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

الناشر

دار الفكر العربي

(تفضل أستاذي الجليل أحمد بك أمين بكتابة هذا التقديم الكريم، فيسرني أن أقدم لعزته خالص الشكر، وعظيم الامتنان، مقرّاً بفضله، مقدراً لعلمه وخلقه، معتزّاً بصداقته، حفظه الله ورعاه). (المؤلف).

من نحو عشرة أعوام أهدى إليَّ الدكتور عبداللطيف حمزة كتابه عن (ابن المقفع) فقدمته يومئذٍ إلى القراء.

واليوم يهديني كتابه (الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول). والفرق بين الكتابين يدل على أن السنوات العشر فعلت في نضج الدكتور المؤلف ما يفعل الزمن بالبذرة الطيبة في التربة الطيبة!

لقد واجه المؤلف في المرة الأولى شخصية معقدة، لم يجلِّها معاصروها، ومضى عليها أكثر من ألف عام، فزادت مع الأيام تعقداً وغموضاً، فعمد المؤلف إلى تجليتها يومئذٍ بكل ما استطاع من قوة.

وفي هذه المرة يعرض نفسه لتاريخ الحياة العقلية والأدبية في عصرين خطيرين؛ وهما: عصر بني أيوب، وعصر المماليك في مصر. ثم هو يحاول أن يعالج الموضوع على أساسٍ علميٍّ دقيقٍ؛ وهو أن لكل إقليم شخصية خلقتها الظروف الطبيعية والاجتماعية، وأن هذه الشخصية تتجلى في نتاجها من علم وفن. وقد بدأ المؤلف من أجل ذلك يحدد الشخصية المصرية: ما عناصرها وما مظاهرها؟ وما ميزاتها؟ ثم حاول أن يطبق ما وصل إليه من تحديد الشخصية المصرية على النتاج العلمي والنتاج الأدبي والناتج الروحي لهذين العصرين.

موضوع - لا شك - خطير ودقيق، فإذا كان تحديد شخصية فرد واحد صعباً عسيراً، فتحديد شخصية أمة بأسرها أصعب وأعسر، وبخاصة شخصية كشخصية مصر؛ تعاقب عليها التاريخ بألوان شتى، ونالها من المد والجزر،

وامتزاج غيرها بها، وامتزاجها بغيرها ما لا يحصى كثرةً؛ وتعاقب عليها من الأديان، ومن الثقافات، ومن النزعات السياسية ما يدق وصفه. وقد تفعل حادثة هادئة خفية في تكوين الشخصية ما لا تفعله حادثة ظاهرة جلية. ثم لما دخل الإسلام هذه الأقطار جعل من المملكة الإسلامية وحدة؛ ولكنه - مع ذلك - لم يَمْحُ القومية محواً تامّاً، فكان هناك عصبيتان: عصبية قومية كعصبية مصر والشام والعراق، وعصبية إسلامية عامة تشترك فيها جميع البلاد الإسلامية، وتتميز عن غيرها؛ كالاصطلاح المشهور في الفقه (دار الإسلام ودار الحرب)، وكانت تختلف قوةُ إحدى العصبيتين عن الأخرى بحسب ظروف الزمان والمكان، وبحسب الأحداث، وبحسب الأشخاص.

سقت هذا لأبيِّن ما يلاقيه محدد الشخصية لأمة من الصعاب، ومن الغموض، ومن الحاجة إلى العمق، ودقة النظر، والشعور المرهف لإدراك الأحداث، ومعرفة أثرها في هذه الشخصية التي يحددها.

وقد أدركت هذه الصعوبة عندما بدأت درس الأدب المصري في كلية الآداب؛ وبخاصة في عصوره الأولى؛ أعني قبل انفصال مصر على يد الدولة الطولونية، فقلما رأيت أدباً مصريّاً متميزاً، وأعياني العثور على شخصية أدبية مصرية في هذا العهد مع طول البحث. وربما كان الأمر أسهل بعد استقلال مصر؛ ولكن البحث عنه لا يخلو - أيضاً - من غموض وصعوبة ومشقة!

وسط هذه الصعوبات سار الدكتور عبداللطيف سيراً وئيداً حميداً باذلاً أقصى الجهد، موفقاً توفيقاً كبيراً تتجلى فيه أخلاق العلماء: من صبر على العناء، وتذوق للذة البحث نسي معها مرارة الجد المتواصل، إلى جري وراء الحقيقة حيث كانت، لا يستهويه الجديد لجدته، ولا ينفر من القديم لقدمه، ثم بدأ بالشك؛ يتبعه ما يوصل إليه البحث من يقين. وهي أخلاق تطالعنا في كل فصل من فصول الكتاب، فَتُعلي من شأنه، وتزيد من قيمته.

لقد ذكر الدكتور المؤلف أن الأدب المصري يتميز بأنه أدب القوة والعاطفة، وأنه أدب الفكاهة والسخرية، وأنه أدب الزينة اللفظية، وعلَّل ذلك بعلل شتى. وكنت أحب الإفاضة في الموازنة بينه وبين الأدب العربي الشامي، والعراقي، والأندلسي. وهل هذه الأوصاف - حقيقة - من مميزات الأدب المصري؟ وهل تفوق المصريون في السخرية والفكاهة على العراقيين؟ وهل تفوقوا في الزينة اللفظية على الحريري وأمثاله في العراق، وابن العميد وابن عباد في الري؟

ولكن لا بدَّ أن المؤلف سيعالج هذه الأمور في كتابه (الحركة الأدبية في مصر)، ما لم يكن قد عالجها بالفعل في هذا الكتاب الذي أعده ووعد بإصداره فيما بعد.

وكنت أحب أن يتابع الدكتور شخصية الأدب العربي المصري منذ نشأته عند الفتح العربي إلى العهد الطولوني، ثم الفاطمي، ثم الأيوبي، ثم المماليك؛ فإن هذه المتابعة والتسلسل يفيد فائدة كبيرة في فَهْم ما طرأ على الحياة العقلية والأدبية المصرية من تغيّر ونمو.

ولكن لا بدَّ أن تكون هناك ظروف قوية حملت الدكتور على أن يبدأ بمصر الأيوبية والمملوكية أولاً.

ونحن نرجو أن يتاح له إكمال السلسلة في أولها وآخرها على الوجه الذي يريد.

إن قراءة هذا الكتاب القيِّم تدل دلالة قاطعة على ما بذل الدكتور عبداللطيف من جهد مضنٍ وعناء متواصل، في سبيلٍ وعِرة يضل سالكها، وتصعب رؤية معالمها إلا بعونٍ من الله.

فأنا إذ أهنئه بكتابه هذا أرجو منه المزيد، وأتمنى له النجاح والتوفيق.

مصر الجديدة في 10 فبراير سنة 1947م.

* * *

لجنة التأليف والترجمة والنشر

عبد الحق فاضل

ثورة الخيام

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥١

عُرض على (لجنة التأليف والترجمة والنشر) طَبْع كتاب (ثورة الخيَّام) للأستاذ عبدالحق فاضل، وقد قرأته واستحسنت نظمه. ورباعيات الخيام غنيّة عن التعريف؛ فقد تُرجمت إلى لغات كثيرة، بعضها ترجمات حرفية، وبعضها ترجمات استوحى فيها المترجمون روح الخيام ولم يتقيدوا بمعناه، كما فعل فتزجرالد.

وقد أقبل عليها المعاصرون إقبالاً كبيراً؛ لأنها تتفق وروح العصر من حيث الملل من الحياة والاستعانة على هذا الملل بالانغماس في اللذات. وقديماً سلك الناس مَسلكين متناقضين لمحاربة هذا الملل: أحدهما: الزهد فيها كما فعل أبو العتاهية وأبو العلاء، والثاني: الانغماس في لذاتها كما فعل أبو نواس والخيام. وقد تُرجمت هذه الرباعيات إلى اللغة العربية مراراً وتقبلها الناس قبولاً حسناً؛ لما فيها من شذوذ أحياناً ودعوة إلى الإمعان في اللذة أحياناً. وأنا لا أوافقه على هذه الدعوة ولا على هذا الشذوذ؛ لأنه كما قال الفيلسوف كَنْت: (إذا أردت أن تعرف شيئاً أصحيح هو أم فاسد فعمِّمه)، ونحن لو عمَّمنا هذا المسلك لكان الناس كلهم إباحيين متلذذين بوهيميين لا يأبهون لشيء إلا الخمر والنساء، ولو تصورنا مجتمعاً هذا شأنه لكان مجتمعاً منحطّاً يسرع إليه الفناء، فكل مجتمع إنما يبقى بتحمل أعبائه وبمقدار ما فيه من حياة الجد مشوبة بقليل من اللذائذ، لا بحياة لذيذة ليس فيها شيء من الجد. على أنه هو نفسه قد يكون أدرك هذا المعنى فلم يحيا الحياة التي دعا إليها، بل كان فقيهاً عالماً بالرياضيات مخترعاً فيها، وهذا كله جد لا لهو. والمؤمن إيماناً تامّاً بدعوته ليس أقل من أن يسير عليها هو نفسه، أما أن يكون عمله في جانب ودعوته في جانب فإن دلّ على شيء فإنما يدل على عدم الإخلاص التام في أحدهما.

لقد وقفنا كثيراً عند مهاجمته للدين وللسماء، ولعله في ذلك مقلد لأبي العلاء المعري في لزومياته، ولكنَّا اعتدنا أن نسمع من مشايخنا قولهم: (ناقل الكفر ليس

بكافر)، واعتقدنا أن هذه النزعات سواء من الخيَّام أو من أبي العلاء لا تحدث إلا فورة وقتية لا تلبث أن تزول، وأنهما إن كفر لساناهما أحياناً فإن قلبيهما لا يفارقهما الإيمان، كالذي قيل عن (هيجل) الفيلسوف الألماني الشهير إنه كفر عقله وآمن قلبه. ونحن في حياتنا اليومية المشاهدَة كثيراً ما نرى أفراداً ممتازين يؤمنون كل الإيمان، ولكن قد تحدث لهم فورة وقتية بسبب حدوث كارثة فظيعة لهم أو نزول مصيبة فادحة في أموالهم أو أنفسهم أو نحو ذلك، فيجانبهم الإيمان في تلك اللحظة، ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى إيمانهم. فلعل الخيَّام كان من هذا القبيل، وجد الحياة كلها بؤساً وغمّاً، ووجد الناس كالكلاب ينهش بعضهم بعضاً، ووجد عاقلاً بائساً وأحمق غنيّاً، فلم يجد مخرجاً له إلا الزندقة أحياناً ثم تهدأ ثورته فيعود إلى دينه. لقد صدق عمرو بن العاص؛ إذ قال: (ليس العاقل من يعرف الشر من الخير، إنما العاقل من عرف الخير والشر، ثم تجنب الشر).

فلا بأس أن يُعرَض على أنظارنا خيرٌ وشرٌّ، بل لا بأس أن يُعرض على أنظارنا خيرٌ كثيرٌ وشرٌّ كثيرٌ، فنفعل الخير عن علم، ونتجنب الشر عن علم.

على هذا الأساس أقدمنا على طَبْع هذا الكتاب لنضع بين يدي القارئ خيراً كثيراً وشرّاً كثيراً، ثم يأخذ كلٌّ ما يرشده إليه عقله وطبيعته كما يأخذ الحنظل والورد، فكلٌّ يجد في الأرض غذاءه الصالح له. فَنَشْرُ رباعيات الخيَّام على وضعها هذا خدمة للمجتمع، وخدمة للتاريخ، وخدمة للأدب العربي. ولناقلها على هذا الوضع أيضاً الشكر الجزيل، فليس يعرف ما لاقى من عناء إلا من حاول أن ينقل الشعر من لغة إلى لغة، مجتهداً أن يحافظ على معاني المنقول منها إلى المنقول إليها، وعلى روحها وحُسن وَقْعها وتنغيمها. فالله يجزل أجره ويُعْظم مثوبته.

1951/10/29م

* * *

جامعة الأزهر للنشر والتأليف

العربية

دراسات في اللغة واللهجات والأساليب

من عمل

يوهان فك

JOHANN Fück

نقله إلى العربية وحققه وفهرس له

دكتور عبد الحليم النجار

مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

بتصدير الدكتور

أحمد أمين بك

وتقديم الدكتور

محمد يوسف موسى

الناشر : مكتبة الخانجي بمصر

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م

اللغـة نظـام اجتماعي كالدين والحكومة، خاضع لتأثير الزمان والمكان؛ فكم من الفرق بين اللغة يتكلمها الأقدمون، واللغة يتكلمها المعاصرون!

نعم، إن الطبيعة عوَّدتنا حتى في الماديَّات أن يكون الانتقال بطيئاً جدّاً، ومتدرجاً جدّاً... ألست فيما ترى تجد الانتقال من شمسٍ إلى ظلٍّ... بل إنك تمرُّ بفترة لا تدري أهي ظل بحت أم شمس بحت؟ ثم تتدرج إلى الظل الخالص، أو الشمس الخالصة...

هـذا في المحسوسـات، فمـا بالك بالمعـاني؟! فإنك مثلاً لا تدرك فرقـاً كبيراً بين اللغـة أمس، وبـين اللغـة اليـوم، ولكـن إذا باعـدت بـين الزمانين أدركت الفرق واضحاً. فكم من الفرق بين ما رُوي لـنا مـن خطـب أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - مـن جُمـل صُبَّـت صبّاً كأنها حِكـم لا تصل بين جملتين منها صلة، بل يعتمـد في الاتصـال بينهما على الإدراك الذهني؛ وبين كلام عبدالحميد الكاتب وابـن المقفَّـع، في التفصيل، وربط الجمل، واتضـاح المعنى وتحديده.. بل ما أكبر الفرق في عصرنا هذا بين الأساليب في أول عهدنا بالنهضة العلمية، والأساليب اليوم: كانت الأساليب الأولى ترمي إلى السجع وتحسين اللفظ وتزويقه، ولا تأبه للمعنـى كثيراً؛ ثم رأينا الأسـاليب تُرسـل إرسـالاً، ويقصد فيهـا إلى المعنى أكثر مـن اللفظ، ورأينا المدرسـة القديمة تندثر شـيئاً فشـيئاً في تـدرج وبطء، ويموت أعلامهـا شـيئاً فشـيئاً في تدرج وبطء أيضـاً؛ وتحيا المدرسـة الحَديثـة في تدرج وبـطء كذلـك؛ حتى لو أننا قارنَّا بين المدرسـتين لأخذنا العجـب كل العجب كيفَ يفعل باللغة الزمان..؟

وذلك بفضل أن اللغة كانت تسـتقي في مدرسـتها الأولى من منابع الأدب العربي القديم؛ وعمادها في ذلك عبدالحميد، وابن المقفع، والجاحظ؛ ثم الصاحب بن عبـاد، وابـن العميد، ثم القاضـي الفاضل، والعماد الأصفهـاني، وأمثالهم؛ على حين أن المدرسـة الجديدة تسـتقي من الأدب الغربي معانيه، وأسـاليبه، وتفننه؛ ولم تستق من الأدب العربي إلا ألفاظه وبعض أساليبه أيضاً.

هذا بالنسبة إلى عامل الزمان؛ وكذلك عامل المكان؛ فكل سكان الأقطار العربية من سوريين، ومصريين، وعراقيين، يتكلمون اللغة العربية ويكتبونها؛ ولكن ما أشد الفروق بينهم؛ فقد عملت بيئة كل قطرٍ عملاً خاصّاً في حناجرهم، وفي ألفاظهم التي استقوها من العرب الذين نزلوا بهم، وطريقة أدائهم لهذه الألفاظ، وغير ذلك من العوامل المكانية.

كل هذا من اختلاف عوامل الزمان والمكان يحتاج إلى دراسة دقيقة جدّاً... وقد تنبه المحدثون إلى أهمية هذه العوامل، فأنشأوا معاهد للأبحاث اللغوية، بعضها يسجل اختلاف اللهجات، وبعضها يتجه إلى رَسْم خرائط تبيِّن كيف تعبِّر كل بلدة عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة، وحتى إن اتَحدت في الألفاظ فكيف تعبِّر عنها مع اختلاف النطق بها، ونحو ذلك.

ويأتي علماء الاجتماع بعد، فيستنتجون من دلائل هذه الاتفاقات والاختلافات، القوانين على اتحاد الأصول إن اتحدت، واختلافها إذا اختلفت، وهكذا.

كما عُني بعض المستشرقين بدراسة بعض اللهجات العربية، فاتجهوا مثلاً إلى قبيلة هذيل، ودرسوا أشعار الهذليين؛ بما يمتازون بألفاظهم وبعض معانيهم عن القبائل الأخرى.

فما كان أحوجنا إلى بحث دقيق، يبيِّن لنا تطور الأساليب في اللغة العربية واللهجات في الأزمنة المختلفة، والأمكنة المختلفة؛ والعوامل التي عملت في هذا التطور من بيئات طبيعية، أو بيئات اجتماعية. فهذا يفيدنا، من ناحية في وقوفنا على هذا التغير، ومن ناحية على العوامل التي تعمل فيه حتى نضع أيدينا عليها، فنقوِّيها أو نضعفها.

ولم نعرف كتاباً من قبل عالج هذا الموضوع معالجة مستقلة، بل نعرف نتفاً في الكتب هنا وهناك، ومسائل صغيرة بها. فوقف الأستاذ يوهان فك (Johann Fück) نفسه على هذا البحث المضني العميق، فكم فتَّش في ثنايا الكتب عما يدله على بحثه، ووفِّق في الجزئيات الصغيرة أن يستنتج منها نتائج كبيرة!

ونُشهد الله أنَّا كنَّا نمر عليها ونفهمها، ولكنَّا لا نستنتج منها النتائج التي وصل إليها... وقد عُرف الألمان بدقة البحث والصبر عليه، والاستطاعة العجيبة في أن يؤلِّفوا بين أجزائه المتنافرة، وأن يصلوا منه إلى أدق النتائج وأعمقها، وهذا ما فعله الأستاذ المؤلف؛ فنحن إذا قرأنا الكتاب، نرى أنه شرح لنا تدرُّج الألفاظ والأساليب من أول الهجرة العربية إلى القرن الرابع الهجري.

نعم، إن الكلمة التي ذكرها المؤلف ليست هي الكلمة الأخيرة في الموضوع؛ ولكنها الكلمة الأولى؛ فهي تحتاج إلى كلمات أخرى تبسط المجمل، وتوضح الغامض، وتزيده بدءاً إلى أول عهدنا باللغة العربية، ونهايةً إلى عهدنا الحاضر... ولكنه على كل حالٍ له فضل السبق، وفتح الباب.

وإذا كان المؤلف يحتاج منَّا إلى ثناء عظيم على ما بذل من جهد، وما وفِّق من نتائج؛ فللمترجم: (الأستاذ النجار) فضل نقله إلى العربية، لينتفع به أهل العربية الذين أُلف الكتاب لهم وللغتهم، فهم أجدر بالاستفادة منه، والجري على منواله.

والحق أن الترجمة جاءت دقيقة واضحة، مع صعوبة أصلها، وملئها بالجمل المعترضة، التي تُدخلها عادة في باب الغموض؛ فاستطاع الأستاذ المترجم، مع دقة الأصل، ومع هذه التراكيب الملتوية بعض الالتواء، أن يكشف غامضها، ويُذهب التواءها، ويَعرضها في ثوبٍ واضحٍ.

وإذا كان هذا العمل فاتحة عمل المترجم، فإنه يحق لنا أن ننتظر منه كثيراً من الأعمال المجيدة؛ وهل بعد الإرهاص إلا الإعجاز؟ أو هل بعد الإزهار إلا الإثمار؟ والله يوفقه.

* * *

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أخبار أبي تمام

تأليف

أبي بكر محمد بن يحيى الصولي

ويتلوه: رسالة الصولي إلى مزاحم بن فاتك
في تأليف أخبار أبي تمام وشعره

نشره وحققه وعلق عليه

خليل محمود عساكر — محمد عبده عزام — نظير الإسلام الهندي

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٥٦ = ١٩٣٧ م

وهـذا نـوع آخـر مما يقـوم به خريجـو كليـة الآداب، وأعنـي به (نشـر الكتب القديمة نشراً علميّاً).

فقد سـبقنا المستشـرقون إلى هذا النوع، ووضعوا له قواعد وشروطاً، تتضمن كيفيـة الحصـول علـى النسـخ المختلفة للكتـاب في أنحـاء العالم، ثـم مقارنة بعضها ببعض، واستبعاد غير الصالح منها أو المكرر، وكيفية الانتفاع بالباقي بعـد ذلـك، وكيفيـة المضاهاة، وما يصح إثباته مما في النسـخ المختلفة وما لا يصـح، ومـا يجوز للناشـر مـن تصحيح الأصـل، وما لا يجـوز، إلى غير ذلك مـن بحـوث، حتـى لقد قام المستشـرق الكبير الأسـتاذ برجسـتر أسِـر بإلقاء محاضرات قيّمة في هذا الموضوع سنة كاملة، ولم يكن بعدُ قد فرغ من بحثه.

وقد مرَّ علينا زمان كان نشر الكتب فيـه عـلى أيـدي تجـار جهـلة، لا يعنون في الموضـوع إلا بجانبـه التجـاري السـخيف، فيكفي أن تقع في أيديهم نسـخة مخطوطة من كتاب يظنون رواجه، فسرعان ما يطبعونه في أيام، غير باحثين عن نسخ أخرى من هذا الكتاب تُعين على تصحيحه، ولا عاهدين بطبعه إلى علمـاء ثقـات يتحرون الصحـة في طبعه، فيخرج الكتاب محرَّفاً مشـوَّهاً، إذا لم يفهـم ناشـره جملـة حذفهـا أو غـيَّر فيها وبـدَّل؛ وقد يكون هـو المخطئ في الفهم، المنحرف عن الصواب؛ ولذلك خرجت أكثر الكتب المطبوعة في مصر محرَّفـة مصحَّفة مملوءة بالأغلاط. إن شـئت فاقـرأ في كتاب العقد الفريد، أو الحيوان للجاحظ، أو الأغاني طبعة بولاق أو الساسـي أو نحوهـا، فلا تكاد تقرأ سطراً من غير خطأ أو تحريف يملُّ منه القارئ ويضيق به صدره.

فلما جاءت نهضتنا الحديثة رأيناها شملت هذا النوع العلمي، فارتقى النشر كمـا ارتقى التأليف، ورأينا النشـر يتحول شـيئاً فشـيئاً من يـد التجار إلى يد العلمـاء، ورأينـا النـاشـر الأمين يعنـى بالكتاب الذي ينشـره عنايتـه بالكتاب الـذي يؤلفـه، ورأينـا العلماء يقدرون النـاشـر كمـا يقدرون المؤلـف، ومع هذا

فحركة النشر على هذا الوضع لا تزال بادئة، ونرجو أن تستمر في تقدمها استمرار العالم العربي في نهضته.

من هذا النوع الجيد الذي أغتبط به، وأَعدُّني سعيداً بتقديمه هذا الكتاب، كتاب (أخبار أبي تمام) للصولي، فقد أعجبني من ناحيتين: ناحية موضوعه، وناحية نشره.

فموضوعه كما يدل عليه اسمه أخبار عن أبي تمام وعلاقته بمن مدحهم، كأحمد بن أبي دؤاد، والحسن بن رجاء، وابن الزيات، وعلاقة العلماء والأدباء به، وكيف كانوا يقوّمون شعره. والكتاب قيِّم من ناحية أنه يجلِّي لنا بعض نواح لأبي تمام لم نعرفها فيما قرأنا في غيره من الكتب، ومؤلفه الصولي ثقة فيما يرويه، قريب عهد بأبي تمام، له بصرٌ بالأدب، وذوقٌ جيدٌ في التقدير. والكتاب مكمِّل لسلسلة من الكتب ظهرت في عصر الصولي أو قريب منه.

ذلك أن أبا تمام خرج على الناس بنوعٍ جديدٍ من الشعر أخرجه من رأسه لا من قلبه، فهو يغوص على المعاني العقلية غوصاً، ثم يرفعها إلى السماء ويعمل فيها خياله البعيد، ويختار لها الألفاظ، ويعنى ببديعها وجناسها، فتمَّ له من معانيه العميقة إلى القاع، وخياله المرتفع إلى السماء، وألفاظه المتجانسة المزوَّقة، نوعٌ جديدٌ من الشعر لم يُسبق إليه؛ نعم إن كل جزئية من هذه الجزئيات قد سُبق إليها، فقد سبقه مسلم بن الوليد بكثرة البديع والجناس في شعره، وسبقه أبو نواس وبشَّار بكثرة المعاني وغزارتها؛ ولكن كل هذه الجزئيات - مبالغاً فيها - لم تجتمع لأَحد قبلُ ما اجتمعت لأبي تمام.

وشأن الجديد في كل عصر، وفي كل علم وفن، أن يثير جدالاً، وأن يقسِّم الناس إلى معسكرين: معسكر ينصره، ومعسكر يخذله، وأن يشتد القتال بين المعسكرين.

وكذلك كان الحال في أبي تمام: فقد أتى بجديد فتنازع العلماء والأدباء فيه، فأمَّا من تعصب للقديم كابن الأعرابي، فكرهوا أبا تمام وكرهوا ما جاء به من شعر جديد، وقالوا: إنه خرج عن عمود الشعر المعروف. وأما من مرَّن ذوقه وعقله ولم يتقيَّد بقديم، فقد أُعجب بأبي تمام أيّما إعجاب، وخاصة من تفلسف ذوقه وعمق فكره، وبعد خياله واستطاع أن يفهمه؛ لأن أبا تمام كان يغوص في الغالب أو يرتفع حتى لا يدركه إلا الخاصة.

وشاء (الله) أن يعاصره البحتري، وهو قريب المعنى حسن الأسلوب، لا يغرب إغراب أبي تمام، ولا يبعد عن عمود الشعر بُعْدَ أبي تمام، إلى ديباجة مشرقة وسبك محكم؛ فساعد وجود البحتري على انقسام الأدباء والعلماء. وخلّف هذا الانقسام ثروة جيدة من النقد الأدبي لم نظفر بمثلها في أي عصرٍ سابقٍ؛ فألَّف الآمدي كتابه (الموازنة بين أبي تمام والبحتري)، يتعصب فيه للبحتري من وراء حجاب، وألَّف الصولي هذا الكتاب يتعصب فيه لأبي تمام، وحكى لنا هذا وذاك الآراء المختلفة والحرب العوان بين المدافعين والمهاجمين، وتولَّد من كل ذلك آراء قيّمة لها شأنها في النقد الأدبي عند العرب؛ فمؤرخ النقد سيجد في الحركة التي كانت حول أبي تمام والبحتري ثروة واسعة ومادة ضخمة، يجد فيها القول ذا سعةٍ، وعلى رأسها هذان الكتابان القيِّمان: (الموازنة)، و(أخبار أبي تمام). وقد مضى زمان كنَّا لا نسمع فيه إلا نغمة الانتصار للبحتري من الآمدي، فكان في هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن ما يعدّل هذه النغمة، ويلطِّف هذه الحدّة، فتتجاوب النغمتان، وتتعادل الكفّتان، ويكون أمام القاضي العادل أقوال الخصوم والمؤيدين تامة في غير نقصٍ.

وأما الناحية الأخرى التي أعجبت بها فهي أن هذا الكتاب من خير الأمثلة لما ينبغي أن يكون عليه (النشر)، فقد عُني ناشروه بتصحيحه وضبطه حتى قلَّ أن أعثر فيه على غلطة، وقابلوا أبيات الشعر التي وردت في الكتاب - وليس

لديهم منه سوى نسخة خطية واحدة - بنفس الأبيات في الدواوين والكتب الأخرى، وأثبتوا ما بينها من اختلاف، وترجموا لكثيرٍ من الأعلام الواردة في الكتاب، وشرحوا ما ورد فيه من غريب، وما غمض من أشعار أبي تمام، وقابلوا - في كثيرٍ من الأحيان - القصة التي وردت فيه بنفس القصة في الكتب الأخرى مع بيان وجوه الاختلاف إن كان، وذكر الصفحات.

وهو عمل مجهد حقّاً يستحق كل تقدير وثناء، ويصح أن يُتّخذ مثلاً للناشر، وقدوة لمن أراد أن يخدم كتاباً قديماً.

ولا بأس أن أقصَّ على القارئ طرفاً مما بذله الناشرون لهذا الكتاب، فمنذ أكثر من ثلاث سنوات اتجه الأديبان: خليل عساكر، ومحمد عزام، نحو شعر أبي تمام، وأرادا أن يخرجا شعره مضبوطاً مشروحاً؛ فقصدا إلى جمع نسخ الديوان وما عليه من شروح، واتجها إلى المكتبات وفهارسها يبحثان كل ما ورد فيها عن أبي تمام. ومن حين إلى حين يأتيان لي بثبتٍ من أسماء الكتب في مكتبات العالَم المختلفة، يطلبان إليَّ أن أرجو مكتبة الجامعة في استنساخها أو أخذها بالصورة الفوتوغرافية، فأجيب طلبهما وتجيب مكتبة الجامعة طلبي، حتى اجتمع لهما مكتبة قيِّمة عن أبي تمام وشعره وشرحه؛ فكان مما عثرا عليه في طريقهما هذا الكتاب، فاستحسناه، وعرضاه عليَّ فاستحسنته معهما، ورغبا في نشره فاستصوبت رأيهما، فعكفا عليه دراسة وتصحيحاً حتى خرج في هذا الشكل الأنيق.

وأنا أرجو أن يتابعا عملهما في أبي تمام على هذا النحو؛ حتى يخرجا لنا مكتبة عنه تجلّي شعره وتظهر قيمته، فليس ذلك على أبي تمام بقليل، وليس صدور ذلك منهما بغريب، فإنهما اليوم خليقان بالشكر، وما يأتي منهما بعد اليوم مرجو منه أن يكون موضع إعجاب.

التأليف والترجمة والنشر

سيرة السيد عمر مكرم

بقلم
محمد فريد أبو حديد

مـا كان لي - ولسـت متخصصـاً في تاريـخ مصـر - أن أقدم للقـراء كتاباً في تاريخ مصر الحديث.

وأغرب من هذا أن أقدم كتاباً في تاريخ مصر الحديث للأستاذ محمد فريد أبو حديد، وهو الذي وقف حياته على دراسـة التاريخ، وبخاصة تاريخ مصر، فترجم (فتح العرب لمصر) تأليف الأستاذ بتلر، وهو الكتاب الفخم الضخم، لقـى في ترجمتـه العنـاء المضني، وأخرجـه للقـراء كأنه مؤلَّـف عربي؛ فذكر الأصـول بنصها الأصلـي، وترجم الإنجليزية. فلولا ما وضع على الغلاف من أنه ترجمة ما شك القارئ أنه عربي الأصل، عربي الأسلوب، عربي التفكير.

وأخـرج (ابنـة المملوك)، وهـي رواية تمثل عصر المماليـك في مصر تصويراً دقيقاً، سلسل حوادثها تسلسلاً بديعاً، وصاغها في أسلوب شيق، ورونق أنيق.

ثـم له الفصول الضافية، والمقـالات الكثيرة في تاريخ مصر، وأحداث مصر، وبطولة مصر.

مـا كان لي بعـد هـذا كله أن أقـدم كتاب (السـيد عمر مكرم) للقـراء، وكان يكفي أن يقال إنه كتاب في تاريخ مصر للأستاذ محمد فريد أبو حديد، ليثق القارئ به، ويقوّمه أحسن تقويم.

ولكـن أتـاح لي القـدر أن أقرأ الكتاب قبل نشـره وطبعه، فراقنـي فيه بجانب ناحيتـه التاريخيـة - ناحيتـه الأدبية؛ فقد اسـتطاع مؤلفـه أن يصوغه صياغة لذيذة شائقة، يقرؤه القارئ فكأنه يقرأ رواية ممتعة لا كتاباً علمياً دقيقاً، مع أنه كتاب علمي دقيق أيضاً.

نعـم إن في عـالم التأليـف روايات شـائقة، بنيـت على أحـداث تاريخية ثابتة، ولكـن عيبهـا أنهـا قيّمة مـن ناحية الأدب، وليسـت بقيمة من ناحيـة التاريخ، فلا يعرف القارئ أي الحوادث ثابت تاريخياً وأيها من نسج الخيال. أما هذا

الكتاب فقيم من ناحيتيه الأدبية والتاريخية معاً، فليس فيه من الوقائع ما هو نسج الخيال؛ ومع ذلك استطاع المؤلف بمهارته أن يسبغ عليه متعة الرواية وإن لم يكن رواية.

أشهد.. لقد بدأت قراءته وفي عزمي أن أفرغ منه بعد أسبوع على أقل تقدير، وأن أخصص له كل يوم بعض الوقت ولأعمالي الأخرى بعضه؛ ولكني ما بدأت به حتى أنساني عملي، وأنساني وقتي؛ واستمررت في قراءته بلذة وشغف حتى أنهيته شاكراً غاضباً؛ فأما الشكر فلأنه هيأ لي ساعات سعيدة لذيذة صرفتها في قراءته، وأما الغضب فلأنه اختلس مني زمني من غير جرم يستوجب الحد.

ومزية أخرى واضحة في الكتاب تظهر لكل قارئ، وهي أن المؤلف عني أكثر ما عني - لا بالملوك والأمراء كما فعل أكثر مؤرخينا - بل بالشعب وحركاته ونفسيته وحياته الاجتماعية وآماله الوطنية. واتخاذُه السيد عمر مكرم محوراً لكتابه أكبر دليل على هذا؛ فهو ليس ملكاً ولا أميراً، ولكنه أحد أفراد الشعب، وعظيم من عظمائهم، يشعر بشعورهم، ويأمل آمالهم، ويقصده الشعب في حوائجهم، ويرجعون إليه في خطوبهم. فاتخذه المؤلف نواة نسج حولها تاريخ مصر في هذا العصر، وبخاصة تاريخ الشعب وتطوراته ونظراته وآماله وآلامه.

وكان حب (فريد) لمصر، وعصبيته لكل ما هو مصري، وحسن تقديره للشعب المصري، سبباً في بعض الأحيان أن يلوّن بعض الأحداث لوناً زاهياً جميلاً براقاً يعجب الأديب والشاعر والسياسي، ولست أدري إلى أي حد يعجب المؤرخ الجاف المتزمت. ولكن نحن - على كل حال - أحوج ما نكون إلى الإكثار من الكتابة في تاريخ مصر في عصورها المختلفة، ومن جوانب الرأي المختلفة؛ فكل هذا يخدم مصر، ويخدم الحق، ويخدم التاريخ، ويخدم السياسة.

وأخيراً أهنئ أخي (فريداً) بنجاحه في هذا الكتاب، وتوفيق الله له، وأجدني مغتبطاً سعيداً بتقديمه للقراء، وأرجو أن يجدوا فيه من الفائدة واللذة ما وجدت.

* * *

تَمَّ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَمِنَّتِهِ وَعَوْنِهِ وَتَيْسِيرِهِ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ
فَلَهُ كَمَالُ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ
وَأَسْأَلُهُ الْمَزِيدَ مِنْ إِنْعَامِهِ وَإِكْرَامِهِ وَإِحْسَانِهِ
وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

حظيَت مؤلَّفات وإبداعات نوابغ العرب في العصر الحديث بمقدِّمات وتقريظات مُحْكَمة وجامعة من أساطين الأدب والفكر والنقد، فذاعَتْ وانتشرت. ومن هؤلاء الأديب العلَّامة الموسوعي أحمد أمين الذي قَدَّم بقلمه الرشيق، وفكره العميق، وتحليلاته الدقيقة، مقدِّمات ضافية وقيّمة لمُصَنَّفات بعض رجال العلم وحَمَلة القَلَم. وقد توفَّر على جمعها وتحريرها الباحث الأديب محمد بن سعود الحمد، وهي فكرة ثاقبة، تجمع الفائدة والمتعة، إذْ أسْدَى خدمة جليلة وطريفة للقارئ العربي، حينما قام بإخراج مُقدِّمات العالم الجليل أحمد أمين لتلك الجمهرة من صفوة علماء وأدباء وشعراء عصره، في كتاب يجمع ثقافات مختلفة، ومشارب متباينة، ومَنازع متعددة.

فهنيئاً له الفكرة، وهنيئاً له الفعل والإقْدام، وبارك الله فيه وفي أمثاله ممن يعكفون على كنوز الأجداد الأفذاذ؛ فيخرجونها زاهية يانعة لشُداة المعرفة وعُشَّاق الأدب.

وهنيئاً للقارئ العربي هذا الكتاب الجديد القديم بقلم أحمد أمين، وفكرة محمد بن سعود الحمد.